فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

شرح الكلمات:

جهنم: دارُ العقاب بعد الموت. راجع لمزيد التفصيل تفسير الآية رقم ١٩ من سورة الرعد.

بئسَ: كلمةُ ذمٍّ، وهي فعل ماضٍ جَمَدَ لإخراجه عن موقعه، فهو محوَّلٌ عن بَؤُسَ الرجلُ أي أصاب بؤسًا، وحَقُّ فاعله أن يكون مقرونًا بلام الجنس أو مضافًا إلى مقرون بها، وقد يُضمَر مفسَّرًا بنكرة منصوبة على التمييز أو بما النكرة نحو: بئسَ رجلاً زيدٌ، وبئسَ ما زيدٌ (الأقرب).

مَثْوَى: الثَّواء والمثوى: الإقامةُ مع الاستقرار (المفردات). المثوى: المنـــزل (الأقرب).

التفسير: لقد أكد الله تعالى في هذه الآية أيضًا نفسَ الموضوع السابق بأن المتكبر – أي الذي يصر على رفض الحق بعد معرفته بسبب نية شريرة ويقول: كيف يمكن أن أكون من الأقزام باتباع النبي – لا بد أن يعاقَب بأشد مما يعاقَب به مَن يكفر غفلةً وتهاونًا لا بنية شريرة، ذلك أن جريمة الكِبر أبشع من الغفلة. فكلمة ﴿بِئْسَ﴾ بيّنت الفرق بين شناعة الجريمتين.

وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

خيرًا: الخيرُ: وِجدانُ الشيء على كمالاته اللائقة؛ وقيل: حصولُ الشيء لما من شأنه أن يكون حاصلاً له.. أي يناسبه ويليق به؛ المالُ مطلقًا؛ الكثيرُ الخيرِ (الأقرب).

نِعْمَ: فعلٌ غير متصرف لإنشاء المدح (المنجد).

التفسير: تبيّن هذه الآية وجهة نظر المؤمنين تجاه القرآن الكريم، وتخبرنا بأية نظرة كانوا ينظرون إليه.

قد يقال هنا: كان هؤلاء مسلمين، فما قيمة شهادتهم في حق القرآن الكريم؟ والجواب أنهم أدلوا بهذه الشهادة في مكة حين كانوا هدفًا لصنوف التعذيب والعدوان، يخافون على حياتهم؛ فتصديقهم للقرآن الكريم ونظرهم إليه بهذه النظرة في تلك الظروف الحرجة الحالكة لشهادة قوية على صدقه.

أما قولهم ﴿خيرًا﴾ فالمراد منه أن هذا القرآن قد نزل على كمالاته اللائقة المناسبة.. أي أن كل ما ينبغي توافره في أي كتاب سماويٍّ لموجودٌ في القرآن بتمامه وكماله؛ أو المعنى: أننا وجدنا القرآن أفضلَ مما كنا نتوقعه.

لقد أخبرنا الله تعالى باستخدام كلمة ﴿أحسَنوا﴾ أن زاوية النظر تلعب دورًا كبيرًا في أعمال الإنسان؛ فأحد هذين الفريقين نظر إلى القرآن الكريم على أنه أساطير الأولين، فلم يُلق لإنذاره بالاً، فهلك؛ بينما اعتبره الفريق المؤمن خيرًا، فاتبعه بصدق، فدخل به نعمَ الدار التي جاء وصفها في الآيات التالية.

جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾

شرح الكلمات:

جَنَّاتُ عَدْنٍ: أصلُ الجَنّ سَترُ الشيء، يقال: جنَّه الليلُ: ستَره. والجَنةُ: كلُّ بستان ذي شجر يستُر بأشجاره الأرض. وقد تُسمى الأشجارُ الساترة جَنةً. وسُميت الجَنة إما تشبيهًا بالجنة في الأرض وإن كان بينهما بَون، وإما لسَتْرِه

تعالى نعمَها عنا المشارَ إليها بقوله تعالى ﴿فلا تعلَم نفسٌ ما أُخفيَ لهم مِن قرة أعين﴾ (المفردات).

وعدَن بالمكان عَدْنًا: أقام به. عدّن البلدَ: توطَّنَه؛ قيل: ومنه جناتُ عَدْنٍ أي جناتُ إقامةٍ لمكان الخلود (الأقرب).

التفسير: قوله تعالى ﴿جنات عدنٍ﴾ يعني أن دار الخير تلك سوف تبقى دائمًا، لأن كل ما هو حسن وخير يُحفَظ ويُستبقى. كما فيه إشارة إلى أن ذلك المقام خال من أي نقص أو عيب، لأن النقص هو الذي يعرّض للفناء.

أما قوله تعالى ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ فليس المراد منه أن تلك الأنهار تجري تحت أرضية الجنة، بل المعنى أن تلك الأنهار الجارية ستكون خاضعةً لنظام أهل الجنة كليةً ولن ينازعهم فيها أحد؛ ذلك أن الأنهار في الدنيا لا تكون بالضرورة خاضعةً لأهل الأرض أو البلد الذي تمر به، ولذلك لا يستطيعون الانتفاع بها كما ينبغي، وأحيانًا تمر الأنهار خلال أراضي بلاد عديدة مما يؤدي في بعض الأحيان إلى نشوب الحروب بينها على تقسيم المياه وغير ذلك.

ويمكن تفسير قوله تعالى ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ بالآتي:

١- أن كل رغبة لهم سوف تتحقق في الجنة، لأن مشيئة الله ستصبح مشيئة لهم، وكأنهم سيصبحون مصداقًا لقول الله تعالى ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ (الإنسان: ٣١)؛ فلن يتمنوا إلا ما سينالونه حتمًا، إذ تخلو قلوبهم من كل طمع وجشع، وتكون محفوظة من نار الحسد، وتتطهر من كل دنس ورجس.

٢- أو أنهم سيملكون التصرف الكامل في الجنات التي يسكنون فيها، فينالون كل ما يرغبون فيه من متعها ونعيمها.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

شرح الكلمات:

سلام: السلامُ اسمٌ من التسليم؛ الاستسلامُ للانقياد والطاعة؛ اسمٌ من أسماء الله لسلامته من النقص والعيب والفناء (الأقرب).

التفسير: المتقون هم أولئك القوم الذين يأتيهم الموت وهم طيِّبو النفوس.. أي يكونون عندها بريئين من كل ما هو عيب ونقيصة، ومتحلّين بأنواع المحاسن من صدق وصفاء ورقي ونماء وعزم وهمّة. (راجع للمزيد عن (طيبين) تفسيرَ الآيات ٢٥ إلى ٢٧ من سورة إبراهيم).

وقوله تعالى ﴿يقولون سلام عليكم﴾.. أي أن الكفار سيتمنون عندئذ عقد الصلح ليَسلَموا، وأما المؤمنون فسوف يستقبلهم الملائكة قائلين: سلام عليكم.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾

التفسير: أي أن فترة المهلة التي أُعطيَها الكفار قد انتهت، فلا ينتظرهم إلا العذاب، وسيكون من نوعين: عذاب فردي سيحل بأفراد معينين، وقد أُشير إليه في الآية السابقة، لأن إتيان الملائكة يدل على العذاب الفردي؛ وثانيهما عذاب قومي، وقد تمت الإشارة إليه بقوله تعالى: ﴿أو يأتي أمرُ ربك﴾.

وقوله ﷻ ﴿وما ظلَمهم اللهُ﴾ يعني أن الكفار الذين خلوا من قبل قد استوجبوا العذاب جرّاءَ أعمالهم، وما دام هؤلاء أيضًا يسلكون مسلكهم الخاطئ، فلن يضروا النبي، بل أنفسهم يظلمون.

فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٥﴾

شرح الكلمات:

حاق: حاقَ به: أحاط (الأقرب).

يستهزئون: استهزأ: هزَأ أي سخِر منه (الأقرب).

التفسير: المراد من ﴿سيئاتُ ما عملوا﴾ هو عاقبة أعمالهم الوخيمة. لقد وضح الله ﷻ هنا أنه لا يعذب الكفار ظلمًا، بل إنهم بأعمالهم يخلُقون لهم العذاب، لأن العذاب ليس شيئًا يأتي من الخارج، وإنما هو نتيجة طبيعية لأعمال الشرير.

لقد بيّن القرآن الكريم هنا فلسفة العذاب الإلهي، حيث أخبر أن عذاب الله هو العذاب الوحيد الذي لا يمكن الاعتراض عليه، وأما ما سواه من العذاب الذي ليس من قبيل النتائج الطبيعية فيصبح مثارًا للطعن في كثير من الأحيان؛ فمثلاً حينما يعاقب القاضي أحد المجرمين فقد يرى الناس أن العقوبة أقسى من جريمته؛ ولكن حينما يمرض أحد نتيجة إسرافه في الأكل فلن يقول أحد عنه إن مرضه ليس بعقاب ملائم على سوء أكله، لأن الجميع يعرفون أن مرضه نتيجة طبيعية لما فعل ومن المستحيل أن يتجاوز حده الطبيعي.

وأما قوله تعالى ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ فقد نبّه به إلى أن هؤلاء الكفار الطاعنين أنفسهم يتعرضون للمطاعن نفسها التي يثيرونها ضد أنبيائهم؛

فإذا رموهم بالكذب كشف الله كذبهم هم للدنيا، وإذا اتهموهم بالمساوئ فَضَحَهم بكشف مساوئهم هم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥

التفسير: لقد صرح الله سبحانه وتعالى من قبل في هذه السورة ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾(الآية: ١٠).. أي ربما يفكر الكفار: لماذا جعل الله طرقًا جائرة أيضًا، والحق أن تفكيرهم هذا ليس في محله، لأنهم هم الذين اخترعوا هذه الطرق الخاطئة، وليس الله ﷻ، لأنه ﷻ لا يمارس الجبر والإكراه، إذ لو نفّذ مشيئته هو بالجبر لهدى الناس جميعًا. وأما هنا في هذه الآية فقال الكفار بالفعل: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا، ولكنه لم يمنعنا من هذا، فثبت أن لا اعتراضَ ولا كراهيةَ عنده تجاه أعمالنا الوثنية.

الحق أن كل من يحمل عقيدة خاطئة – سواء كان فردًا أو قومًا – لا بد أن يسلك مسلكًا غير معقول أمام قوة الأدلة والبراهين، لأنه لا يعارض الحق متمسكًا بمبدأ من المبادئ، فيضطر إلى تغيير مبدئه مرة بعد أخرى. ففي الآية رقم ٢٥ أخبر الله تعالى أن الكفار حين لا يقدرون على مواجهة أهل الحق يقولون: ما قيمة التعليم الذي يدعونا إليه؟ إنما صنعه تقليدًا للأنبياء الأولين! فردّ الله ﷻ على قولهم بأمرين: أولهما أنهم لا يقصدون بذلك إلا تشويه الحقيقة وتضليل العامة، لذا فلا وزن لاعتراضهم؛ إذ لو كان هذا الوحي مجرد تقليد للأولين فحسب، أفلا يليق بهم أن يقبلوه طالما هو حقّ وصدق؛ وثانيهما أنه لو كان

صاحب هذا الكلام يقلّد الأنبياء الأولين فليعلموا أنهم أيضًا يقلّدون أعداء الأنبياء السابقين؛ حيث كانوا يأتون ما يأتي هؤلاء من أعمال ونشاطات، ولكنهم لم ينجحوا في مراميهم، فكيف ينجح هؤلاء في أهدافهم؟ وهكذا فقد قدّم القرآن دليلاً عمليًّا على سخافة اعتراضهم، إذ لو كان اعتراضهم معقولا ولو كانت تعاليم الأنبياء مجرد تقليد للأولين لما اتبعها الناس تاركين أديانهم السابقة.

ثم بعد الآية رقم ٢٥ بين القرآن الكريم بالتفصيل كيف سيعامل الله ﷻ المؤمنين والكفار.

والآن وفي هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها استأنف القرآن الكريم الردَّ على مطاعن الكفار وأخبر أن الكافرين لما سمعوا الردّ الداحض لاعتراضهم ورأوا خيبة آمالهم الشريرة غيّروا موقفهم وقالوا: كيف يمكن أن يعذّبنا الله؟ إذا كنا نحن وآباؤنا خاطئين عند الله فلِم لم يصرفنا عما نحن عليه، ولِمَ لم يسلب منا القدرة على ارتكاب الأعمال الوثنية؟ أليس هو قادرًا؟ ويرد الله على اعتراضهم هذا ويقول: كان هناك سبيل واحد لذلك وهو أن يأمر الله ﷻ أنبياءه بممارسة الجبر على الناس، ولكن يستحيل أن يقدّم هؤلاء الكفار أيَّ نبي – من بين الأنبياء الذين هم يؤمنون بهم مثل إبراهيم ولوط، والذين يرون أن معارضيهم كانوا على الباطل – أَكْرَهَ الناسَ على الإيمان. فإذا لم يسمح الله لأنبيائهم أن يُكرهوا الناس على الإيمان.. فكيف يتوقعون ذلك من محمد؟ فكما أن الرسل في الماضي نشروا تعاليمهم بالتبليغ لا بالإكراه كذلك سيحصل الآن أيضًا.

أليس من المستغرب أنه، بالرغم من وجود هذه الآية وكثير غيرها، يعتقد بعض المسلمين بجواز الإكراه في الدين؟ (انظر ارتداد كي سزا اسلامي قانون مين – أي "عقوبة الردة في الشرع الإسلامي – للمودودي: العقل وقتل المرتد).

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

شرح الكلمات:

اجتنبوا: اجتنبَه: بعُد عنه (الأقرب).

الطاغوت: كلُّ متعدٍّ؛ الكاهنُ؛ الشيطانُ؛ كلُّ رأس ضلال؛ الأصنامُ؛ كلُّ معبود من دون الله؛ مَرَدَةُ أهل الكتاب. وجمعُه طواغيتُ وطواغٍ (الأقرب).

الطاغوت: الساحرُ؛ الماردُ من الجنّ؛ الصارفُ عن طريق الخير (المفردات).

هَدَى: هداه الطريقَ وإليه وله: بيّنه وعرّفه له. هدَى فلانًا: تقدَّمَه، تقول: جاءت الخيلُ يهديها فرسٌ أشقر أي يتقدمها. هداه الله إلى الإيمان أي أرشده إليه (الأقرب).

عاقبة: آخرُ كل شيء (الأقرب).

التفسير: لقد رد الله ﷻ على طعن الكفار المذكور من قبل بعدة أجوبة هي:

١- ﴿ولقد بَعَثْنا في كلِّ أمَةٍ رسولا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾.. أي إذا كنتم مصيبين فيما تقولون فلماذا دعا كل نبي إلى التوحيد وحارب الشرك؟ لو كانت عقيدة الشرك مما رضي به الله لبعث رسولاً واحدًا على الأقل يدعو إلى الشرك.

٢- ﴿بعثْنا في كل أمة رسولاً﴾.. أي لو أراد الله ﷻ الإكراه في الدين لما كانت هناك حاجة لأكثر من رسول، بل لبعث ﷻ رسولاً واحدًا فقط ليهدي الناسَ قسرًا إلى الحق مرة واحدة وللأبد؛ ولكن مجيء الأنبياء الواحد تلو الآخر، وفي كل أمة، يدل على أن الناس كانوا ينحرفون عن طريق الأنبياء مرة بعد

أخرى، مما تطلَّبَ بعثَ أكثرَ من رسول واحد. ولكن لو كان الجبر هو الخطة الإلهية لما جرت الأمور على هذا المنوال.

٣- ﴿واجتنبوا الطاغوتَ﴾.. أي أن كل نبي أمَر باجتناب صحبة الشرير وعدم طاعته.. أو بتعبير آخر أمَر بأخذ الحذر من هجمات الشيطان. فلو كان الله ﷻ هو الذي جعل البعض موحّدين والآخرين مشركين.. فكيف يمكن أن يأمر أيضًا باجتناب الطاغوت؟ لو كان الجميع متمسكين بدينهم ومعتقدهم بإكراه من الله تعالى وليس عن خيار منهم فما الحاجة أن يبعث الأنبياء لإنذارهم؛ فليبقَ الموحد موحدًا والمشرك مشركًا لأن هذه هي المشيئة الإلهية!

٤- ﴿فمنهم مَن هَدَى اللهُ ومنهم مَن حقّتْ عليه الضلالةُ﴾.. أي لو كان ما تزعمون حقًّا فكيف خرجت في كل زمن جماعة من الكفار تؤمن بالنبي؟ بمعنى أنه إذا كان الله هو الذي جعلهم من قبل كافرين فكيف صاروا مؤمنين؟ فهذه الشهادة من الواقع تدل دلالة واضحة على أنه تعالى لا يُكره أحدًا على الكفر.

٥- ﴿فَسِيرُوا في الأرض فانظُروا كيف كان عاقبةُ المكذِّبين﴾.. أي أن أعداء كل نبي هلكوا، فإن كنتم لا تعلمون فسيروا في الأرض لتتأكدوا من ذلك؛ لأن كل العالم حافل بآثارهم. فإذا كان الله تعالى هو الذي جعلهم كافرين أو مشركين حسب زعمكم فكيف جاز أن يعاقبهم مع أنه هو الذي أكرههم على الكفر؟ فحلول العذاب بهم إن دل على شيء فإنما يدل أن الله تعالى لم يُكره أحدًا على الكفر أو الشرك، وإنما اتخذ كلٌّ واحد موقفه بحريته وخياره.

إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

التفسير: الخطاب هنا موجَّه إلى النبي ﷺ وأتباعه، حيث قال الله ﷻ لهم: كل واحد منكم يريد الهداية للكفار، ولكن ما كان الله ليهدي الجميع، لأنه كما لا

يُكره أحدًا على الكفر أو الشرك كذلك تمامًا لا يُجبِر أحدًا على الإيمان أو التوحيد، لأن هذا يُبطل الغرض من الإيمان ألا وهو تطهير القلب.

أما قوله ﷻ ﴿فإن الله لا يهدي مَن يُضِلّ﴾.. فاعلم أن الضمير في ﴿يُضِلُّ﴾ لا يعود إلى الله تعالى، ولا تعني هذه الجملة أن من يُضللْه اللهُ فلا يهديه، فهذا مفهوم خاطئ وقد تم إبطاله في الآية السابقة، وإنما يعود هذا الضمير على (مَن)، والمراد أن الله تعالى لا يهدي من يقوم بتضليل الآخرين.

كما تتضمن هذه الجملة الإشارةَ إلى أن الهدى إنما يتيسر لمن يبحث عنه، أما الذي لا يبرح في تضليل الآخرين فأنَّى له أن يبحث عن الهدى، فبما أنه هو نفسه لا يغيّر حالة قلبه فكيف يمكن أن يهتدي؟

وبيّن بقوله ﷻ ﴿وما لهم مِن ناصرين﴾ أنه فيما يتعلق بالهدى فلا يمكن أن ينصر الإنسانَ أحد سوى الله تعالى، ولكن هؤلاء قد سدّوا باب النجدة الإلهية. فإذا كانوا يظنون أنهم سوف ينالون الهدى تلقائيًّا فهو ظن باطل. هناك سبيل واحد فقط لهدايتهم.. أن يُسلموا، ولكنهم بدلاً من أن يدخلوا في الإسلام يعتبرون الأصنام وسيلةً للهدى، فلا فرصة لهدايتهم؛ لأنهم ما داموا راغبين في آلهتهم الباطلة معرضين عن الله ﷻ فلن يأتي هو لنجدتهم، وأما آلهتهم فهي غير قادرة على نجدتهم أصلا، وبالتالي فلا صريخ لهم ولا مغيث.

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

شرح الكلمات:

جهدَ أيمانهم: جهَد في الأمر جَهْدًا: جدَّ وتعب فيه. جهَد دابّتَه: بلَغ جهدَها وحمَّلها فوق طاقتها. الجَهْد: الطاقةُ، يقال أفرغَ جَهدَه أي طاقتَه؛ المشقّةُ. ﴿وأقسَموا بالله جهدَ أيمانهم﴾ أي بالَغوا في اليمين واجتهدوا (الأقرب).

لا يبعَث: راجع شرح الآية رقم ٣٦ من سورة الحِجر.

التفسير: يقول الله تعالى إنهم عندما يعجزون أمام براهين أهل الحق يَحلفون بأن لا حياة بعد الموت ليؤكدوا لأتباعهم أنهم في مأمن من العذاب، وذلك كيلا يبحث أتباعهم عن الحق بجدية.

هنا سؤال: لِمَ يحلف الكفار هكذا؟ وما هي الفائدة التي يرجونها من أيمانهم؟

الجواب أن بعض الناس يملكون شخصية ضعيفة ولا يقدرون على بتّ الأمر بأنفسهم، ويقع هؤلاء الضعفاء في حيرة من أمرهم حين يسمعون من أهل الحق البراهين القوية، وعندها يتقدم زعماؤهم وأسيادهم يحلفون ويقسمون لهم كيلا يتخلوا عن عقائدهم؛ تأخذهم رهبةُ أَيمانهم لكونهم ضعيفي العزيمة، فيرجع بعضهم إلى معتقداتهم الفاسدة ثانية. فالأَيمان هي الأخرى من الأسلحة التي ما زال أئمة الكفر يستخدمونها على مر العصور لصدّ الناس عن الهدى. ذلك أن العامة لا يَدرون بسبب جهلهم أن الحلف إنما يفيد التأكيد، ولا يُتقبل إلا من الصالحين الصادقين فقط، أما الكذابون كهؤلاء فيكذبون في أيمانهم تمامًا كما يكذبون في حياتهم العادية. أو أن الحلف ينفع نفع الشهادة من الله على صدق الحالف.. بمعنى أنه إذا حلف أحد في الأمور التي فيها تهديد إلهي للحالف كذبًا بالعذاب في الدنيا، ثم لم يتعرض هذا الحالف لعذاب الله في الدنيا، كان ذلك شهادةً من الله على صدقه. أما الأمور الأخرى فالحالف فيها كذبًا لا يعذَّب بالضرورة في هذه الدنيا، كما لا يكون حلفه بمثابة الشهادة أو الدليل على صدقه، ومن أجل ذلك قال النبي ﷺ إن الذي يحلف كذبًا في محكمة الدين يعاقَب في الدنيا.. أي لا يعذَّب بالضرورة كلُّ حالف كاذب في الدنيا.

لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾

التفسير: لقد دلّل الله ﷻ بهذه الآية على ما سبق بيانه حيث أوضح أن البعث بعد الموت ضروري لإحراز اليقين بما يدعو إليه الدين؛ ذلك لأنه من المحال أن ينتهي الاختلاف في الحياة الدنيا، فما زال الناس عند بعث كل نبي مختلفين بين مؤمن وكافر. فلو أن سلسلة حياة الإنسان انتهت بموته في الدنيا لأدى ذلك إلى أمرين: أولهما أن صدق دعوى النبي لن ينكشف انكشافًا تامًّا، بل سيبقى غامضًا مشتبهًا، وثانيهما أنه سيُكتب الحرمانُ الأبدي من الهدى على المنكرين؛ وهذا يتنافى مع عظمة الله ﷻ، لأنه قد خلق الناس ليصبحوا كلهم عبادًا له، ولكن لو أن حياتهم انتهت بموتهم في الدنيا لما تيسرت للكفار أية فرصة ليكونوا عبادًا له ﷻ. وعلى هذا فلا بد من أن ينال الإنسان حياةً أخرى بعد الموت تتجلى فيها الحقيقة تمامًا حتى يتمكن من معرفة الحق مَن لم يستطع أن يعرفه في الدنيا.

قد يعترض هنا أحد قائلا: إن الله ﷻ يُنـــزل الكتب ويرسل الرسل في الدنيا تبيانًا للحق وكشفًا لحقيقة ما اخُتلف فيه، كما صرح بذلك في هذه السورة نفسها بقوله: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبيّن لهم الذي اختلفوا فيه﴾(الآية: ٦٥).. فكيف يصح القول إن الهدف من البعث بعد الموت هو كشف الحقائق؟

والجواب أن المراد من تبيين الحق في هذه الدنيا هو توضيح الحقيقة عقليًّا بالأدلة والبراهين، ومثلُ هذا التبيين ينفع الذين يبحثون عن الحق بصدق، ولكنه لا ينفع غيرهم الذين ليسوا مثلهم، فهؤلاء بحاجة إلى التبيين الذي يكون من القوة والجلاء بحيث لا يسعهم بعده الإنكار، ولا يبقى أمامهم مجال للهروب بمختلف الأعذار. ولكن مثل هذا التبيين لا يمكن أن يتم في الدنيا، لأنه لا يمكن أن ينال المرء إيمانًا عاليًا بعد تبيين كهذا؛ ذلك لأن الاعتراف بوجود الشمس بعد رؤيتها

مشرقةً في كبد السماء ليس اعترافًا ذا قيمة، كذلك تمامًا فإن الإيمان.. الذي يتم بعد أن حصحص الحق واضحًا جليًّا لا غموض فيه.. لا يمكن أن يُكسب صاحبَه الدرجات العلا. فالذين يريدون الفوز بأفضال الله الخاصة تُتاح لهم الفرصة لذلك من خلال تبيين الحقيقة لهم عن طريق الرسل في الدنيا، أما كشف الحقيقة لكل النوع البشري كشفًا جليًّا لا غموض فيه فيتم من خلال التبيين المذكور في هذه الآية وسيكون في الآخرة فحسب؛ ولكن بعد ذلك التبيين لن ينفع الإيمان نفعًا خاصًّا غير أنه سيجعل الكفار صالحين للفوز برضوان الله ﷻ بعد أن يتحملوا عقوبة معاصيهم هنالك.

إذن فالتبيين الذي يتيسر به الإيمان للجميع لا يتم في هذه الدنيا، وإنما يتطلب ذلك عالمًا آخر، وسيكون بالبعث بعد الموت.

أما قوله تعالى ﴿ولِيعلَمَ الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ فهو تتمة وتفصيل للدليل السالف الذكر بأن ذلك التبيين تبيين خاص بحيث لن يسع الكفار بعده إنكار الحق أبدًا، وسوف يوقنون أنهم كانوا على الباطل.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

التفسير: يقول الله تعالى: إن من دواعي إنكار الناس ليوم القيامة أنهم يستبعدون قدرتنا على إحياء الموتى. والحق أنهم لو تدبّروا في قدرتنا المتجلية في ظواهر الكون لأدركوا أن لا شيء مستحيل أمامنا، وإنما إذا أردنا شيئًا فإنما أمرنا أن نقول له كن فيكون.

لقد قدّم الله ﷻ هنا الأنباء التي يدلي بها رسلُه دليلاً على وجود القيامة، حيث أخبر أن تلك الأنباء أيضًا تبدو مستحيلة بالنظر إلى مقاييس أهل الدنيا، ومع ذلك تتحقق لتشكل برهانًا على كونه تعالى قادرًا فعّالاً لما يريد؛ فيمكن أن يقيسوا بذلك أمر القيامة أيضًا.

ومن الناس من تهاجمهم الوساوس بسبب قوله تعالى ﴿كُنْ﴾، فيقولون: إذا سلّمنا بأنه قبل أن يخلق الله الكونَ كان هناك عدم محض فكيف يصح قوله تعالى ﴿كُنْ فيكون﴾؟ فما الذي قيل له: ﴿كُنْ﴾؟ فمثلا يزعم الآريون الهندوسُ أن هذه الآية أيضًا دليل على أنه قبل أن يخلق الله الأشياء لم يكن هناك عدم محض، بل كانت هناك مادةٌ ما تحكَّمَ الله بها وتصرَّف فيها وخلق منها الكون، إذ كيف يصح أن يقول الله ﴿كُنْ﴾ لما هو غير موجود (ستيارث بركاش (ترجمة أردية) باب ١٤ : تحقيق الديانة الإسلامية طبعة ١٩٤٣ ص ٥٣٠).

الحق أن استدلالهم هذا غير سليم، لأنهم يفسّرون الآية هكذا: "عندما نريد لشيء أن يكون فإننا نقول لذلك الشيء كن فيكون". والظاهر أن هذا المفهوم الذي يقترحونه لهذه الآية أيضًا لا يَسلم من الاعتراض والطعن وإن سلّمنا بأزلية المادة التي خلق الله منها ذلك الشيء، لأنه ما لم تتشكل تلك المادة الموجودة من قبل بالشكل الجديد الذي أُريد لذلك الشيء، لا يمكن أن يأمره الله أن يكون كما يريد.

فالحق أن استدلال الهندوس بهذه الآية على أزلية المادة باطل تمامًا، لأن ما يثيرونه ضد النظرية الإسلامية القائلة بكون المادة مخلوقة وأنها ليست أزلية مثل الله تعالى.. يقع بالضبط على نظريتهم أيضًا القائلة بأزلية المادة؛ وهذا يعني أن هذه الآية لا تعني ما يقصد منها هؤلاء، بل لها مفهوم آخر.

فما هو ذلك المفهوم الصحيح إذن؟ أرى أن استيعاب ذلك المفهوم يتطلب من القارئ فهمَ معنى ﴿كُنْ﴾ فهمًا سليمًا واضحًا.

فاعلم أن ﴿كُنْ﴾ لها مدلولات عدة منها: "فَلْيَكُنْ هكذا"؛ والدليل عليه هو الحادث التالي:

عندما خرج النبي ﷺ لغزوة تبوك تخلَّفَ عنه أصحاب لـــه منهم أبو خَيثَمة. وكان إنسانًا تقيًّا بارًّا لم يتصور أن يكون من المتخلفين؛ وكان سبب تخلُّفه أنه لم يكن بالمدينة لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك. فلما رجع إلى بيته وجد زوجته في

انتظاره تريد بثَّ همومها إليه؛ ولكنه غض النظر عن رغبتها تلك وسألها: إلى أين خرج النبي ﷺ؟ فقالت له: تعال اجلسْ أولاً واسترِحْ. فرد عليها: لا، والله ما كان لأبي خيثمة أن يجلس عند أهله في راحة والرسولُ ﷺ قد خرج للقتال. فجهّز فرسه على الفور وركَض إلى الجهة التي خرج إليها رسول الله ﷺ، وما زال يركض حصانه حتى دنا من المكان الذي نزل فيه رسول الله بتبوك. فقال الناس: يا رسول الله، ها هو راكبٌ مقبلٌ. فقال النبي ﷺ: كن أبا خيثمة. فقالوا: هو والله أبو خَيْثمة. (تاريخ الطبري: أحداث سنة ٩، ذكر الخبر عن غزوة تبوك).

فقول النبي ﷺ: "كنْ أبا خيثمة" لا يعني أن هذا الراكب – أيًّا كان – ينقلب أبا خيثمة، وإنما المراد: أتمنى أن يكون القادم أبا خيثمة. وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿كُنْ﴾.. أي حينما نرغب في إيجاد شيء فإننا نريد أن يوجد في شكل كذا أو كذا، فيأخذ في الوجود وفق إرادتنا له. علمًا أن الحديث هنا ليس عن خلق الأشياء من العدم في بداية خلق الكون، وإنما عن خلق الله الأشياء عمومًا.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾

شرح الكلمات:

لَنبوِّئَنّهم: بوَّأه وبوَّأ لـــه منـــزلاً: هيَّأه ومكَّن له فيه (الأقرب).

التفسير: هذه الآية وما بعدها تشكل دليلا على قدرة الله العظيمة المشار إليها من قبل، حيث ينذر الكفارَ: لا شك أن هذه الفئة المؤمنة قليلة، وقد اعتديتم عليهم عدوانًا دفَعهم لترك أوطانهم، ولكنكم سترون كيف أننا سنمنحهم أفضل البلاد والأوطان، ولن تستطيع قوةٌ أن تحول دون مشيئتنا هذه.

أما كلمة ﴿في﴾ الواردة في قوله تعالى ﴿والذين هاجروا في الله﴾ فيمكن تفسيرها بعدة أوجه منها:

١- أن تكون بمعنى (ل)، وتعني الجملة أن هؤلاء قد هاجروا لوجه الله ﷻ، و لم يكن وراء هجرتهم هدف آخر، إذ ورد في الحديث الشريف أن الهجرة تكون لثلاثة أغراض: فهناك من تكون هجرته إلى دنيا يصيبها، وهناك من تكون هجرته إلى امرأة ينكحها، وهناك من يهاجر إلى الله تعالى (البخاري: بدء الوحي).

يعترض أعداء الإسلام اليوم أن المسلمين الأوائل خاضوا الحروب طمعًا في أموال الناس. وبما أن ربّنا - الذي هو عالم الغيب - كان على علم أن مثل هذه المطاعن ستثار ضد عباده الأطهار، فقام بدحضها بقوله هذا حتى قبل نشوب تلك الحروب.

٢- أن نقدّر محذوفًا بعد ﴿في﴾، فيكون التقدير: (في دين الله)، أي أنهم هاجروا في سبيل دين الله تعالى، لأنهم لا يستطيعون نشر دينه في مكة بحرية، ولذلك يهاجرون في سبيل نشر دين الله إلى حيث يتمكنون من خدمة دينه ﷻ بحرية تامة.

٣- أن تكون ﴿في﴾ بمعناها المعروف، والمراد أنهم هاجروا متفانين في الله ﷻ، مصطبغين بصبغته، قاضين على أهواء نفوسهم، ومؤثرين الله ﷻ على كل شيء؛ وكأنه لم يخرج من مكة بعض الآدميين فحسب، بل وقد خرج الله منها، وكأن أهلها فقدوا الله بخروج هذه الحفنة من عباده ﷻ.

وقد أوضح الله تعالى بقوله ﴿مِن بعد ما ظُلموا﴾ أن هجرتهم لم تكن بدون داع، بل لقد هاجروا لأن الظالمين لم يسمحوا لهم بالعيش هناك، وأجبروهم على مغادرة وطنهم.

وفي الآية دلالة على أن من واجب المؤمن أن لا يستعجل في ترك بلده، وإنما عليه أن يستمر في التبليغ إلى أن يضطره الناسُ للهجرة بحيث يستحيل عليه في بلده العمل بأحكام الله تعالى.

ثم قال الله ﷻ ﴿لَنُبوّئنّهم في الدنيا حسنةً﴾. اعلمْ أن هذه الآية تتحدث خاصة عن هجرة سيدنا عمر وبعض الصحابة الآخرين إلى المدينة، إلا أن المسلمين حيثما حلوا – سواء في هذه الهجرة أو بعدها – جعل الله مَهجرَهم خيرَ منـــزل وأفضل مقام. ولو نظرنا إلى نتائج الهجرة ككل وجدنا أنها صيّرت التجار العاديين ورعاة الإبل ملوكًا يحكمون العالم.

ثم قال ﷻ ﴿ولأجرُ الآخرة أكبر﴾.. أي أن جزاءهم الحقيقي ينتظرهم بعد الموت، وسيكون جزاءً أكبرَ بكثير؛ غير أننا سنُحلّ المسلمين في الدنيا أيضًا بأسمى مقام ليكون ذلك عبرةً لأعداء الحق.

الحق أن ما حاز عليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من مكانة سامية في الدنيا يساعد الإنسان على إدراك روعة قوله تعالى ﴿ولأجرُ الآخرة أكبر﴾.. لقد آتاهما الله ﷻ الحُكمَ على معظم العالم المتمدن، ومع ذلك يقول الله تعالى إن هذا جزاء عاديّ، وإذا كان هذا جزاءً عاديًّا فيمكن تقدير حجم ما أعدّ الله لأبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة في الآخرة من نعيم عميم.

وتتمثل علاقة هذه الآية بما قبلها في أن الله ﷻ قد حذّر الكفار من قبل أنكم تُنكرون يوم القيامة لأنكم ترونه مستحيلاً على قدرتنا؛ ألا ترون كيف تقع في الدنيا بأمرنا أحداث تبدو مستحيلةً في أعين الناس، فكيف تظنون بعد ذلك أن البعث بعد الموت أمر مستحيل علينا. والآن قد ساق الله في هذه الآية أحد الأنباء كدليل على هذه الدعوى، وقال: إن أهل مكة يزدرون اليوم بالمسلمين، ويصبّون عليهم صنوف العذاب ليطردوهم من ديارهم، ويشرّدوهم بلا مأوى، ولكننا نعلن سلفًا أن هجرتهم ستكون فاتحة خير لهم، ولن تجلب لهم حسناتِ الدين فحسب، بل أيضًا خيراتِ الدنيا، وحتى الحُكمَ أيضًا. ولقد جيء بهذا النبأ والرسول ﷺ مقيم في مكة، وكان المسلمون ضعفاء عديمي الحيلة بحيث كان أهل مكة يخططون ليقتلوه ﷺ أو يُخرجوه أو يسجنوه؛ ولكن بعد هذا النبأ بسنة أو ثلاث جعل الله المسلمين ملوكًا على العالم، وذلك بسبب هجرتهم. وإن في ذلك

لآية عظيمة للذين ينكرون القيامة ظانين أن الله لا يقدر على ذلك، إذ كيف يحق للإنسان أن يستغرب من قدرة الله ﷻ الذي من سنته أن يُري العجائب دائمًا.

ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٣﴾

شرح الكلمات:

صبروا: الصبرُ: تركُ الشكوى من أَلَمِ البلوى لغير الله لا إلى الله، فإذا دعا اللهَ العبدُ في كشف الشر عنه لا يُقدَح في صبره. وقال في الكليات: الصبرُ في المصيبة، أما في المحاربة فشجاعةٌ. وصبَر الرجلُ على الأمر: نقيضُ جَزِعَ.. أي جرُؤَ وشجُع وتجلَّدَ. وصبَر عن الشيء: أمسَكَ. وصبَر الدابةَ: حبَسها بلا علف. وصبرتُ نفسي على كذا: حبَستُها، وتقول: صبرتُ على ما أكرَهُ، وصبرتُ عما أُحبّ (الأقرب).

يتوكّلون: توكَّل على الله: استسلمَ إليه واعتمد عليه ووثق به (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن هؤلاء المهاجرين المضطهدين جماعة تمسكت بأهداب الصبر ووثقت بربها رغم تشردها من ديارها على أيدي المعتدين.

وكأن هذه الآية شرح لما سبق؛ فإن المظلوم منصور من عند الله ﷻ عمومًا، ولكن المظلوم الصابر أكثر وأسرع اجتذابًا لرحمة الله وفضله. كذلك فإن الهجرة في سبيل الله حسنة كبيرة بلا شك، ولكن الذي يتعرض في سبيل الله ﷻ للسلب والتشريد من وطنه، ومع ذلك يبقي واثقًا بأنه لن يضيع ولن يهلك بل سيأتي الله لنجدته حتمًا.. فلا جرم أنه أحسنُ عملاً.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

الذِّكر: التلفظُ بالشيء؛ إحضارُه في الذهن بحيث لا يغيب عنه؛ الصيتُ، ومنه: "له ذكرٌ في الناس"؛ الثناءُ؛ الشرفُ.. وفي القرآن ﴿إنه لذكرٌ لك ولقومك﴾؛ الصلاةُ لله تعالى والدعاءُ.. "إذا حَزَبَه أمرٌ فَزِعَ إلى الذكر"؛ الكتابُ فيه تفسير الدين ووضع الملل. والذِّكر من الرجال: القويُّ الشجاعُ الأَبِيُّ؛ والذِّكر من المطر: الوابلُ الشديد؛ والذِّكر من القول: الصلبُ المتين (الأقرب).

التفسير: أي أن أكبر ما يحمل الكفارَ على معارضة هذا النبي هو ظنهم أنه بشر مثلهم لا يقدر على أن يضرهم شيئًا، ولكنهم لا يفكّرون أن الرسل السابقين أيضًا كانوا من البشر، ومع ذلك نجحوا في مرامهم.

أما قوله تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أهلَ الذِّكرِ إن كنتم لا تعلَمون﴾ فوجّه به اللوم إلى الكفار، إذ كانوا يدّعون أنهم من ذرية إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وأنهم على علم بأحوالهما وكانوا يعرفون كيف أنهما نجحا في مهمتهما على الرغم مما لقيا من معارضة وإيذاء (السيرة النبوية لابن هشام: سياقة النسب من وُلد إسماعيل). فيلومهم الله ﷻ ويقول: يبدو أنكم قد نسيتم ما جرى على آبائكم، فاسألوا أهل الذِّكر عنهم إن كنتم لا تعلمون! وبما أن الذكر يعني حفظ الشيء أيضًا فالمراد: اسألوا عن أحوالهم مَن يذكرها ويحفظها.. أي المسلمين. ما أروعَ أسلوبَ القرآن هذا، وما أشدَّه تأثيرًا، ولا جرم أن قلوب الكفار تكون قد تقطعت بسماع هذا الكلام المليء بالتعنيف والتقريع.

أما قوله تعالى ﴿نوحي إليهم﴾ فقد أشار بذلك إلى أن عزة النبي ليست بالجنود والأسباب المادية، إنما ثروته الوحي، وبه ينال الفتح والظفر.

وفيه إشارة أيضًا إلى أن الكفار إذا كانوا يظنون أنه من المستحيل أن ينال المسلمون الحكمَ عن طريق هذا الشخص ضعيف الحيلة.. فليتذكّروا أن الأنبياء في الماضي أيضًا

لم يملكوا من الوسائل والأسباب إلا الوحي، ومع ذلك قد أحدث الله ﷻ على أيديهم انقلابات عظيمة وكأنما أقام القيامة في هذه الدنيا نفسها.

وقوله ﷻ ﴿رجالاً﴾ ردٌّ على قول الكفار الذين قالوا: لماذا لا تنـــزل الملائكة علينا. لقد سجّلت السورةُ السابقة أيضًا مطالبتهم هذه، إذ قالوا ﴿لوما تأتينا بالملائكة﴾، فقوله تعالى ﴿رجالا﴾ تعيير بهم أنكم تعتبرون الملائكة بنات لله، والبنات لا يُوفَدن ممثلات عن أحد، فكيف يمكن أن تأتيكم الملائكة؟

وبما أن المسلمين كانوا سينالون الحُكم بعد الهجرة، وكان طبيعيًا أن يظهر بين القوم طمّاعون في السلطة – مثل مسيلمة الكذاب وسجاح المتنبئة وغيرهما – ظنًّا منهم أن هذه الحكومةَ أيضًا كغيرها من الحكومات الدنيوية، لذا فليس من المستبعد أن يكون قوله تعالى ﴿رجالاً نوحي إليهم﴾ إشارةً إلى هذه الفتنة القادمة، وتأكيدًا منه ﷻ على أنه سيُخرج رجالاً يقومون بقمع هؤلاء المتنبئين والمتنبئات بسبب الفصاحة والبلاغة.

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

شرح الكلمات:

البيّنات: جمعُ البينة وهي: الدليل؛ الحجةُ (الأقرب).

الزُّبُر: زبَره يزبُر زَبرًا: رماه بالحجارة. زبَر الكتابَ يزبِر ويزبُر: كتَبه – وزاد في مفردات الراغب – كتابةً غليظةً. زبَر السائلَ: انتهره. زبَر عن الأمر: منَعه ونهاه. والزِبْر: الكتابُ، جمعُه الزُبُور والزُبُر. والزَبور: الفِرقةُ؛ المُلكُ؛ الكتابُ (الأقرب).

التفسير: هذه الآية أيضًا شرح للموضوع السابق حيث أوضحت أنه لم يأت الأنبياء إلا بالآيات والأحكام من عند الله تعالى إذ بهما يتحقق الغرض من بعثتهم وهما الوسيلة لنجاحهم.

واعلم أن كلا من ﴿الذِّكر﴾ و﴿الزُّبر﴾ يعني الكتاب أي الوحي الذي يجب الإيمان به، ولكن بما أنهما قد وردا هنا متقابلين فيؤدي ﴿الذِّكر﴾ مفهومًا خاصًّا، ذلك أنه إذا وردت كلمة مقابلَ كلمةٍ أخرى مرادفة لها فإن الأخيرة منهما تكون لبيان الأفضلية أو الدونية، وبما أن السِّياق هنا يتطلبُ معنى الأفضلية فيكون ﴿الذِّكر﴾ هنا بمعنى الكتاب الذي هو أشرف وأكمل؛ إذًا فمفهوم هذه الآية أن الله تعالى قد آتى الرسل قبلك البيناتِ والزبرَ، ولكنه آتاك البيناتِ والذكرَ، أي أفضل مما آتاهم، وما دام الرسل السابقون قد استطاعوا بكتبهم التي كانت أدنى من كتابك أن يهزموا أعداءهم فمن المحال أن لا تنجح أنت في إلحاق الهزيمة بأعدائك وعندك كتاب هو أفضل من كتبهم. ونظرًا لهذا المعنى تكون (ال) في ﴿الذِّكر﴾ للكمال.

كما يمكن أن تنطبق هنا المعاني الأخرى للذِّكر أيضًا مثل الدعاءُ؛ الصلبُ المتين؛ الصيتُ؛ الثناءُ؛ إحضارُ الشيء في الذهن بحيث لا يغيب عنه (الأقرب)؛ فتعني الآية أن من مزايا كتابك أنه يحتوي على أدعية كاملة، لذلك سوف يكون سببًا في نزول أفضال الله الخاصة. ثم إن تعليماته محكمة متينة فلن يضره طعن الطاعنين. كما أنه سيُكسب العاملين به ثناءَ الناس، لأنه سوف يصوغ أخلاقهم وأعمالهم بحيث ستضطر الدنيا للثناء عليهم، أو المعنى أن في كتابك ثناءً كاملا لله تعالى مما سيزيد المؤمنين عرفانًا به ﷻ. ثم إن كتابك سوف ينال من الصيت والقبول بحيث يتلوه الناس كل حين، فلا يمكن نسيانه.

واللام في ﴿لِتُبيِّن﴾ للتعليل أو للعاقبة. فإذا كانت تعليلية فالمعنى أننا أنزلنا عليك كتابًا أفضل من الكتب السابقة، لكي تقوم بتعليم العالم كله.. أي أن فضل هذا

التعليم يكمن في أنه لا يختص بشعب أو بزمن معين، بل هو للناس جميعًا. وأما إذا كانت اللام للعاقبة فالمعنى أننا ما دمنا قد أنزلنا عليك أفضل كتاب فلا يمكن أن تخفيه عن الناس، فكونه أفضل كتاب يفرض عليك أن تدعو إليه الدنيا كلها، إذ كيف يمكن أن يلزم الصمت مَن نزَل عليه كلام سامٍ كهذا.

وأما قوله تعالى ﴿نُزِّلَ إليهم﴾ فاستثار به عواطف الكفار ترغيبًا لهم في القرآن حيث قال: لا شك أن هذا الكتاب قد نزل عليك يا محمد، ولكن الواقع أنه قد نزل إلى الدنيا كلها لأن غرضه أن ينفع الناس جميعا، فلِم البخل في الشكر على هذا العطف الرباني!

كما أكد بقوله تعالى ﴿نُزِّلَ إليهم﴾ ضرورة تبليغ هذا الوحي إلى الجميع، لأنه نزل إلى الدنيا كلها، ولأنه ثروة مشترَكة بين البشر كلهم، فتوزيعها على الجميع فريضة واجبة.

ليت المسلمين أدركوا أهمية التبليغ! والواقع أنهم لو لم يتهاونوا في أداء واجب تبليغ رسالة القرآن لم يُرَ في العالم اليوم دينٌ سوى الإسلام، إذ ليس بوسع أي تعليم آخر أن يصمد أمام التعاليم الإسلامية المقدسة. لا شك أن هناك عوائق كثيرة في سبيل انتشار الإسلام اليوم، ولكنها حصلت بسبب الجشع المادي الذي يمنع الناس من اعتناقه، وقد حصل هذا حديثًا، أما في الماضي فكانت الدنيا أيضًا في قبضة المسلمين مثلما كان الدين بأيديهم.

هذا، وإن قوله تعالى ﴿لِتُبيِّنَ للناس﴾ إشارة إلى موضوع لطيف آخر أيضًا. هناك بعض الكتب التي لا يستطيع الإنسان قراءة ما فيها على غيره حياءً وخجلاً، ومثاله بعض ما ورد في الكتاب المقدس في بعض الأماكن، ولكن القرآن الكريم يحتوي على أمور شريفة يمكن قراءتها في أي مجلس. حتى إن أحد الكتّاب النصارى أيضًا قد اعترف بهذا قائلاً: إن من مزايا القرآن أنه يمكن قراءته في أي مكان ومجلس، ولكن هذا مستحيل بالنسبة لكتبنا. ومثاله ما ورد في الكتاب المقدس عن قصة لوط مع بناته وقتلِ بني إسرائيل زوجاتِهم وصغارَهم بأمر الله

تعالى (تكوين ١٩: ٣١ – ٣٨، وتثنية ٣: ٦). إنه بكل تأكيد مما يثقل على الطبع ذكرُه في المجالس. ومثاله عند الآريا الهندوس تعليم باسم "النيوك"،* فإنه يبلغ من البشاعة والسخافة بحيث إن الهندوسي نفسه لا يقدر على قراءته على زوجته ناهيك أن يقرأه على أتباع الأديان الأخرى علنًا.

ولكن القرآن الكريم قد ذكر شتى القضايا والأحكام وقد تناولها بلغة شريفة وكلمات فاضلة بحيث يمكن ذكرها أمام أي قوم وأي إنسان أيًّا كان عمره.

وفي قوله تعالى ﴿لعلهم يتفكرون﴾ إيماءة إلى أن الوحي يجلو فكر الإنسان ويصقله، وكانت حياة الصحابة – رضوان الله عليهم – أكبر دليل على صدق ذلك. كانوا أُمِّيّين وغير واقفين على أحوال الدنيا، ولكنهم بسماع الوحي القرآني واستيعابه صاروا أساتذة لعلماء العالم، وقد أُعطوا من الفهم والاستنارة بحيث خلفوا وراءهم أسوة يُحتذى بها في جميع المجالات العلمية.

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٦﴾

شرح الكلمات:

يخسف: خسَف المكانُ خسوفًا: ذهَب في الأرض وغرَق. خسَف اللهُ تعالى الأرضَ: أساخَها بما عليها. خسَف اللهُ الأرضَ بفلان: غيَّبه فيها. خسَف في الأرض وخُسف به مجهولاً: أي غاب فيها. خسَف فلانًا: أذلَّه وحمَّله ما يَكرهه (الأقرب).

التفسير: تتضمن هذه الآية نبأً آخر عن مصير الكفار. والخسف– كما ذُكر آنفًا – يكون ظاهريًّا ومعنويًّا أيضًا. لا شك أن كلمات الآية تدل على الخسف

*حكم "النيوك" في الديانة الهندوسية يحتّم على الزوج الهندوسي غير القادر على الإنجاب أن يرسل زوجته إلى شخص قوي قادر على الإنجاب حتى لا يبقى هو وزوجته بدون أولاد (المترجم)

الظاهري لأن خسف الأرض بأحد يعني دفنه فيها، إلا أن المراد هنا هو الخسف المجازي أي الذل والإهانة. ولقد تعرض الكفار لعذاب الخسف هذا بشكل مذهل بحيث إننا لا نجد اليوم أحدًا يذكر أسماء صناديد العرب الكفار وعائلاتهم، ولكن لدى ذكر أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأولادهم – رضوان الله عليهم أجمعين– تنحني الهامات إجلالاً لهم وإكبارًا.

أما قوله تعالى ﴿أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعُرون﴾، فلا شك أن العذاب يفاجئ الكفار دائمًا، ولكن هناك أحداث في حياة النبي ﷺ ينطبق عليها قول الله هذا بشكل محير. خذوا صلح الحديبية مثلاً، كان أهل مكة يرونه انتصارًا عظيماً لهم، ولكن الأيام دارت بعد الصلح دورةً جعلت صلح الحديبية آيةً عظيمة في حق النبي ﷺ. لقد أصر أهل مكة عند الاتفاقية على أنه إذا أسلم أحد من أهل مكة وهرب إلى المدينة فلا بد من إرجاعه إلى المكيين، وهذا الشرط أدى إلى تكوُّن عصابة من المسلمين أخذت في محاربة الكفار خارج النظام التابع للنبي ﷺ، وضيقت على المكيين الخناق، حتى جاءوه ﷺ صاغرين يتوسلون إليه بأن يسمح لهذه العصابة بالهجرة إلى المدينة. ثم بعدها اشتبكت بعض القبائل فيما بينها فساعدت قريشٌ بعضَها مخالفةً بذلك الاتفاقيةَ مما أفسح للمسلمين المجال للزحف على مكة، ففُتحتْ بسرعة هائلة وبطريق مفاجئ جدًّا (السيرة النبوية لابن هشام: أمر الهُدنة، والسيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٥– ٣٢ طبعة ١٩٣٥).

أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٧﴾

شرح الكلمات:

تقلُّب: تقلَّب الشيءُ: تحوَّل عن وجهه. تقلَّب على فِراشه: تحوَّل من جانب إلى جانب. تقلَّب في الأمور: تصرَّف فيها كيف شاء (الأقرب).

معجزين: أعجزَه الشيءُ: فاتَه. أعجَزَ فلانٌ فلانًا: صيَّره عاجزًا. أعجزه: وجَده عاجزًا (الأقرب).

التفسير: التقلّب يعني أيضًا السفر بحسب قول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿لا يغُرَّنَّك تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد﴾(آل عمران: ١٩٧).. أي لا تكن مغترًّا بأسفارهم التجارية هنا وهناك، فتقول إنهم أصحاب قوة وثراء فكيف يمكن أن يندحروا ويُغلَبوا. ونظرًا إلى هذا المعنى يكون المراد من قوله تعالى ﴿أو يأخُذَهم في تقلُّبهم﴾ أنه يجب ألا يظن الكفار أن أسفارهم التجارية ستكون مدعاة لقوتهم وشوكتهم، فإن الله تعالى سوف يعذبهم بسبب أسفارهم التجارية نفسها. وبالفعل خاض الكفار معركة بدر دفاعًا عن قافلة تجارية لهم، فذهبت ببدر ريحهم وانكسرت شوكتهم. (السيرة النبوية لابن هشام: غزوة بدر الكبرى).

ومن معاني التقلب التصرفُ، فتعني جملة ﴿أو يأخُذَهم في تقلُّبهم﴾ أنه تعالى سوف يُخلّ بتصرفهم أي سلطتهم ويُضعِف نفوذَهم. وبالفعل أُخذ أهل مكة بهذا العذاب أيضًا لدى الحديبية حيث رفضت بعض القبائل الكافرة الانضمام إلى صفوفهم، والتحقت بالمسلمين رغم الاختلاف العقائدي، وهي التي تسببت فيما بعد في زحف المسلمين على مكة وفتحها.

أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

تخوُّف: تخوَّفَ عليه شيئًا تخوُّفًا: خافَه عليه. وتخوَّف الشيءَ: تنقَّصَه. تخوَّف حقَّه: تهضَّمه. "هو يأخذهم على تخوُّف" أي يُصابون في أطراف قراهم بالشر حتى يأتي ذلك عليهم (الأقرب). والتخوف: ظهور الخوف من الإنسان (المفردات).

التفسير: من معاني التخوف النقصانُ، فتعني الآية أن الله تعالى سيعذب أهل مكة أيضًا بنقصان الأراضي التابعة لهم، حيث تخرج مناطق نفوذهم من أيديهم شيئًا فشيئًا. وهذا ما حدث بالضبط حيث بدأ أهل الأقطار المختلفة من الجزيرة يدخلون في الإسلام حتى قبل فتح مكة.

كما أن التخوف يعنى الرعب، فتعني الآية أنه ﷻ سوف يعذبهم بعذاب الخوف.. أي أنه سيلقي في قلوب الذين كفروا هيبة المسلمين بحيث تنخلع بها قلوبهم. والحق أن مثل هذا العذاب يكون من الألم بمكان، لأنه يحطّم أعصاب الإنسان ويلقيه في سعير القلق الشديد الذي لا انقطاع له. وقد تعرض المكيون لهذا العذاب أيضًا، فكان رعب النبي ﷺ وأصحابه يعتصر قلوبهم باستمرار، حيث ورد في الحديث الشريف قولُ النبي ﷺ: "نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر" (البخاري: كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ جُعلت لي الأرض مسجدًا).. أي أن الله ﷻ قد نصر رسوله بالرعب والهيبة، فحيثما خرج هابَه الناس حتى أولئك الذين يقطنون بعيدًا عنه مسافةَ شهر.

ثم قال الله تعالى ﴿فإن ربكم لرءوف رحيم﴾. وذكرُ الرأفة هنا بعد ذكر العذاب يبدو غريبًا لأوّل وهلة، لكن له أسبابًا عديدة: أولها أن الله تعالى حتى في إنزال هذا العذاب المتنوع عليهم قد عاملهم بالرأفة، ولم يصبّه عليهم دفعةً واحدة؛ فقد حذّرهم أولاً بالتخوف أي بنشر الإسلام في المناطق المجاورة لمكة، ثم حصلت اشتباكات بسيطة بينهم وبين المسلمين، ثم انعقد بالحديبية الصلح الذي ذهبت به ريحهم؛ ثم فاجأهم في عقر دارهم لدى فتح مكة. فهذا البطش البطيء كان رأفة ورحمة في حقهم، إذ تيسرت بذلك الهدايةُ لمن كان أهلاً لها، وإلا فلو أراد الله لأهلكهم دفعةً واحدةً.

والسبب الثاني – وهو الأولى عندي – هو أن الرأفة هنا تخص المسلمين وليس الكافرين، والمراد أن عذاب أهل مكة يمثل رأفةً ورحمة بالمؤمنين، لأنه يستهدف

إنقاذ المسلمين المضطهَدين من تعذيب أهل مكة وعدوانهم. والدليل على ما أقوله هو أنه لدى ذكر العذاب استخدم القرآن ضمير الغائب، ولكن عند الحديث عن الرأفة والرحمة استخدم ضمير الخطاب.

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾

شرح الكلمات:

يتفيَّؤُ: تفيَّأت الظلالُ: تقلَّبت (الأقرب).

داخرون: دخَر ودخِر: ذلَّ وصغُر، وفي القرآن: ﴿سيدخُلون جهنم داخرين﴾ أي أذلّاءَ مهانين (الأقرب).

التفسير: يقول الله ﷻ هنا للكفار: لم لا تتدبرون في نواميس القدرة مطيعين لله وخاشعين له، لتروا كيف أن كل شيء إلى زوال، وأن كل أمة معرَّضةٌ للانحطاط. فتدالُ الدُّول، وتخرَّب المدن، وتدمَّر البلاد، ويصير الفقير ثريًّا، والثري فقيرًا. فكل ما في الدنيا يتقلص ظله آخر المطاف.. أي أن الإنسان يفقد في آخر الأمر كل ما يحققه من رقي ونفوذ ومنـــزلة ورعب وسطوة وصيت. فلماذا لا تفكّرون في هذه القاعدة الكلية، متخلين عن الكبر والغطرسة، لكي تأخذوا العبرة وتقبلوا الحق.

لقد بيّنتُ هذا المعنى باعتبار قوله تعالى ﴿سجدًّا لله وهم داخرون﴾ حالاً لضمير الغائب للجمع في ﴿أو لم يَروا﴾، بينما اعتبره البعض حالاً لـــ ﴿ما﴾ الواردة في قوله ﴿ما خلَق الله من شيء﴾(ابن كثير)؛ وبما أن الضمائر المستخدمة هنا هي للمذكر فأرى أن المعنى الذي بينته هو الأصح.

وهناك تساؤل آخر: قال الله تعالى هنا ﴿عن اليمين والشمائل﴾، بينما كان الأولى أن تكون الكلمتان إما بصيغة الجمع أو المفرد، أي إما أن يقول: عن اليمائن والشمائل، أو يقول: عن اليمين والشمال؟

لقد أجاب عليه البعض وقال: إن العرب إذا ذكرتْ صيغتي جمعٍ عبّرتْ عن أحدهما بلفظ الواحد، وقد اتبع القرآن هذا الأسلوب في موضع آخر أيضًا حيث قال ﴿وجعَل الظلماتِ والنورَ﴾. وقال غيره: لقد وحّد اليمينَ لأنه أراد واحدًا من ذوات الأظلال، وجمعَ الشمائلَ لأنه أراد كلها. وقال البعض الآخر: وحَّد اليمينَ والمراد به الجمعُ (تفسير فتح البيان).

كما أن المفسرين قد عانوا كثيرًا في تفسير كلمتي (اليمين والشمائل)، فقالوا إن ظلال الأشياء تمتد أو تتقلص شرقًا وغربًا بحركة الشمس، وليس يمينًا وشمالاً، فكيف قال هنا: "يتفيؤ ظلالُه عن اليمين والشمائل".

وقد حاول البعض حل هذه المعضلة بقوله: إن اليمين هنا بمعنى المشرق والشمائل بمعنى المغرب، لأننا إذا اتجهنا إلى جهة الشمال كان المشرق على يميننا والمغرب على شمالنا (المرجع السابق).

ولكني لا أرى هذا الرأي رأيًا، لأنه مخالف للمعتاد، فلتحديد الجهات يقف الناس متجهين إلى الشرق لا إلى الشمال. إنما المراد أن الله تعالى قد حذّر الكافرين من قبلُ من العذاب، والآن قد دلّل عليه وقال: أفلا يفكّرون أن الوسائل لا تنقلب عدوًّا لمن خلَقها وأوجدها؟ أفلا يرون أن أظلال الأشياء تتغير بحركة الشمس؟ وإذا كانت الشمس على ظهر شيء فيمتد ظلّه ويطول. فهل تظنون أن الله تعالى لا يملك من القدرة ما تملكه الشمس؟ فما دام الله ﷻ يساند محمدًا ويشد عضده فكيف يمكن أن لا يمد ظله ولا يحقق له الرقي؟ وبالعكس كيف لا يتقلص ظلُّ مَن لم يكن الله يسانده؟

فالواقع أنه بضرب هذا المثال قد عقد الله ﷻ المقارنة بين النبي ﷺ والكفار أهل مكة، وأخبر مَن الذي سوف يتقلص ظله ويزول ومَن الذي سيطول ظله ويمتد

نفوذه. وبما أن النبي ﷺ كان سيهاجر من مكة إلى المدينة – علمًا أن هذه السورة أيضًا قد تحدثت عن الهجرة – لذلك أرى أن المراد من اليمين هو مكة ومن الشمال هو المدينة؛ ذلك لأن أحدًا إذا وقف بين حدود المدينتين متجهًا إلى الشرق كانت مكة على يمينه والمدينة على شماله. وقد استعملَ "اليمين" مفردًا و"الشمائل" جمعًا، ليشير إلى أن ظل أهل مكة سوف يكون قليلاً وسيتقلص وينكمش، وأما محمد ﷺ الذي سوف يهاجر إلى منطقة الشمال فسوف يكون له أظلال كثيرة أي سوف يحقق النفوذ في جهات عديدة.

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٠﴾

شرح الكلمات:

دابّة: دبَّ دبًّا: مشَى على هينته (أي ببُطْءٍ) كمشي الطفل والنملة والضعيف. والدابّةُ: مؤنثُ الدابّ؛ ما دبَّ من الحيوان، وغلب على ما يُركَب ويُحمَل عليه الأحمالُ، ويقع على المذكر، والهاء فيها للوحدة كما في الحمامة (الأقرب).

التفسير: يقول الله ﷻ: إن كلاًّ من أهل الأرض وملائكة السماء خاضع لحكمنا ومنقاد لمشيئتنا؛ وبما أن كل ما في الكون من أسباب ومدبّريها – أي الملائكة – واقع في قبضتنا فلم لا نسخّرهم في خدمة محمد، وكيف لا يمتد ظله ويتسع نفوذه ﷺ؟

وأوضح بقوله ﷻ ﴿وهم لا يستكبرون﴾ أن المسخَّرين في خدمة محمد ﷺ يعملون له جاهدين في طاعة كاملة، ولكن أتباعكم، أيها الكافرون، لا يطيعونكم بصدق ووفاء كاملَين، فلا بد أن يظل نظامكم ناقصًا وسينهار عاجلا.

وهناك تساؤل آخر: إن كلمة "الدابة" تعني المواشي عمومًا، فكيف استخدمها الله للناس؟ والجواب أن الدَبَّ يعني المشي ببطءٍ وتَؤُدة، واسم الفاعل منه هو الدابُّ الذي مؤنثه الدابّة، وهذا المعنى يشمل الإنسان أيضًا.

يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥١﴾

التفسير: هذه الآية وصفٌ للملائكة، وإنما لتُبطل كل ما نُسِجَ حول هاروت وماروت من خرافات وأباطيل. إن الملائكة يخافون الله ﷻ ويفعلون ما يأمرهم به، فكيف يمكن أن يخرجوا عن طاعته كما يقال في تلك الخزعبلات؟

وقوله تعالى ﴿مِنْ فوقهم﴾ حالٌ للملائكة، والمعنى أنهم يخافون الله الذي هو قاهر فوقهم.

وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

إلـــهَين: الإله: المعبود مطلقًا بحق أو بباطل لأن الأسماء تتّبع الاعتقادَ لا ما عليه الشيءُ في نفسه (الأقرب).

واحد: الواحد بمعنى الأحد أي المنفرد الذي لا نظير له أو ليس معه غيره (الأقرب).

فَارْهَبون: رهَب الرجلُ رهبةً: خاف (الأقرب).

التفسير: وقوله تعالى ﴿فإياي فَارْهَبونِ﴾ أصله هو: فإياي ارْهبوني فَارْهبوني. وفيه تأكيد على خشية الله وحده ﷻ.

لقد اعترض البعض على قوله تعالى ﴿لا تتخذوا إلـــهَينِ اثنينِ﴾ قائلا: لماذا جاء التركيز على الاثنين، بدلاً من أن يقال (لا تتخذوا آلهة)، فهذا الأسلوب يُوهم وكأنه لا بأس من اتخاذ آلهة كثيرة، أما إلهين اثنين فلا!

الواقع أن هذا الاعتراض ناشئ عن قلة التدبر في القرآن الكريم، لأنه قد صرح بعد ذلك مباشرة ﴿إنما هو إله واحد﴾؛ وبعد هذا التصريح كيف يمكن القول بأن هذا الأسلوب القرآني يوهم جواز اتخاذ أكثر من إلهين؟ فكلمة الاثنين جاءت إزاء الواحد لتؤكد استحالة وجود أكثر من إله واحد.. لا اثنين ولا أكثر.

هذا، وهناك حكمة أخرى في اختيار هذا الأسلوب وهو أن المشركين أيضًا كانوا يفرّقون بين الله وما يتخذون دونَه من آلهة باطلة، فكانوا يعتقدون أن الله خالقُ الكون، ولكن للآلهة الأخرى أيضًا سلطة غير أنها محدودة نظرًا إلى كون قدراتها وتخصصاتها محدودة، فهذا مثلاً يُنـــزل المطر، وذاك يهَب الأولاد، والثالث يشفي من الأمراض وهلمّ جرًّا؛ أو أن كل قبيلة ومنطقة لها إله خاصّ يتفقدها ويرعاها. فكأنهم كانوا يعتقدون بوجود نوعين من الآلهة: النوع الأول عبارة عن إله واحد قادر مطلق القدرة، والنوع الثاني يشمل عدة آلهة ذوات قدرات متفاوتة وهي آلهة مناطق وشعوب محددة (تفسير الرازي: سورة الزُّمر، الآية: ولئن سألتهم من خلق السماوات...). فقوله تعالى ﴿إلهين اثنين﴾ نفي لتقسيم الألوهية بين هذين النوعين من الآلهة.

والحكمة الثالثة في اختيار هذا الأسلوب هو إبطال عقيدة المجوس خاصة، فإنهم يؤمنون بإلهين: إله للخير وإله للشر؛ فالله تعالى يعلن هنا أن ليس هناك من إلهين اثنين، إنما هو إله واحد، وهو الذي يجزيكم بالخير والشر، فلا تتخذوا إلهين اثنين.

لقد نبه الله ﷻ بذلك أنه ما دام هناك إله واحد فمن ذا الذي يمكن أن يُنـــزِل الشرعَ من دونه. إنه ﷻ وحده يتمتع بهذه السلطة.

كما أن هذه الآية تتضمن الإشارة إلى نتائج الهجرة التي تم التنبؤُ عنها قبل قليل حيث أخبر الله ﷻ أنكم ستدركون لدى تحقُّق ذلك النبأ أن الله هو الإله وحده

ولا إله سواه، بمعنى أن نجاح المسلمين ورقيهم سيشكّل برهانًا ساطعًا على وجود البارئ ﷻ وتوحيده.

هذا، وإن هذه الآية تعقد المقارنة بين تعليم القرآن الكريم وما عند الكفار من مبادئ وتعاليم، وتكشف أن الناس لا غِنًى لهم عن تعليم القرآن. لقد أضلتهم عقولهم فاتخذوا هذه الآلهة العديدة، ولكن الحق أن الوحي هو الذي يهدي إلى التوحيد الحقيقي، ويحمي العقلَ الإنساني من الخطأ والشطط.

وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

الدِّين: دانَ يدين دِينًا: أطاع: ودانَ فلانًا: خدَمه؛ حكَم عليه. الدينُ: الطاعةُ؛ القضاءُ (الأقرب). واستُعير "الدين" للشريعة (المفردات).

واصبًا: وصَب الشيءُ يصِب وُصُوبًا: دام وثبَت. وصَب الدَّينُ: وجَب. وصَب فلان على الأمر: واظَبَ وأحسَنَ القيامَ عليه. الواصب: الدائمُ. ﴿وله الدينُ واصبًا﴾ أي دائمًا (الأقرب).

التفسير: لقد ساق الله ﷻ هنا برهانًا قويًّا على بطلان العقيدة الوثنية، وقد ذكر هذا البرهانَ في أماكن عديدة أخرى في القرآن الكريم أيضًا. يقول عزَّ من قائل: لو أمعنتم النظر في السماوات والأرض ودرستم نواميس الكون بنظرة فاحصة، لوجدتم في كل مكان قانونًا واحدًا، ورأيتم كلَّ شيء منتظمًا في نظم واحد؛ وما دام القانون الجاري في الكون واحدًا فكيف يمكن أن يحكمه ملكان أو أكثر. لو كان في الكون آلهة إلا الله لرأيتم في نواميسها وقوانينها اختلافًا، لأنه لدى الاعتقاد بوجود أكثر من إله واحد لا يخلو الأمر من إحدى الحالتين:

١- فإما أن يكون الإله الثاني مطيعًا للإله الأول ومنفّذًا لأوامره؛ وفي هذه الحالة يصبح وجود الإله الثاني أو عدمُه سيَّين، لأن شخصًا واحدًا إذا قدر بمفرده على القيام بعمل من الأعمال فلا داعي أن يُعهَد هذا العمل نفسه إلى اثنين.

٢- أو أن الإله الثاني أيضًا يقوم ببعض الأعمال في الكون بحسب قانون ونظام خاص به إلى جانب ما يفعله الإله الأول؛ وفي هذه الحالة لا بد من وجود اختلاف في الكون، ولكن الواقع لا يصدّق هذا، فلا مناص من الاعتراف أن لا إله إلا إله واحد لا شريك له.

وأما قوله تعالى ﴿وله الدين واصبًا﴾ فقد أوضح به أنه كان هناك احتمال آخر لوجود إلهين وذلك بأن يكون أحدهما يمارس الحكم إلى زمن محدد ثم ينعزل ويتعطل ليأخذ الآخر مكانه، ولكن الواقع يعارض ذلك، حيث لا زالت النواميس الطبيعية منذ ملايين السنين كما هي من دون أن تتغير وتتبدل. فالاعتقاد بوجود إله إلى جانب هذا الإله الذي يملك السماوات والأرض والذي له القانون الجاري منذ الأزل إلى الأبد لهو اعتقاد فاحش وحماقة كبرى.

وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾

شرح الكلمات:

نعمة: هي الصنيعةُ والمنّة؛ ما أُنعِمَ به عليك من رزق ومال وغيره؛ المسرّةُ؛ اليدُ البيضاء الصالحة. وفي الكليات: النِّعمةُ في أصل وضْعها الحالةُ التي يستلذُّ بها الإنسانُ، وهذا مبني على ما اشتهر عندهم من أن الفعلة بالكسر للحالة وبالفتح للمرة. نعمةُ الله: ما أعطاه الله للعبد مما لا يتمنى غيرَه أن يعطيه إياه، وجمعُها أنعُمٌ ونِعَمٌ. فلان واسع النعمة أي واسعُ المال (الأقرب).

الضُّرّ: ضدُّ النفع؛ سوءُ الحال والشدة. وفي الكليات: الضَّرّ بالفتح شائع في كل ضرر، وبالضم خاص بما في النفس كمرض وهُزال (الأقرب).

تَجْأَرون: جأَرَ الداعي جأَرًا: رفَع صوتَه بالدعاء. جأَر إلى الله بالدعاء: ضجَّ وتضرَّع واستغاث، ومنه ﴿ثم إذا مَسَّكم الضُّرُّ فإليه تجأَرون﴾ (الأقرب).

التفسير: لقد ذكر القرآن الكريم هنا تلك الآيات والبراهين الدالة على التوحيد التي تُوجد في نفوس الكفار. يقول: إن كل ما عندكم من نِعم فهو من الله تعالى، لأنها كلها خاضعة لنظام واحد، ومع ذلك تعزُون بعضها إلى آلهة أخرى؛ ولكن إذا أصابتكم آفة شديدة تَنسون آلهَتَكم الباطلة هذه وتستغيثون ذلك الإلهَ الذي هو واحد وحق، وهذا يدل على أن قلوبكم غير مطمئنة بالشرك. وحيث إنكم أنفسكم غير مطمئنين بالشرك فلماذا تؤكدون عليه لهذه الدرجة.

إنه لمن الحقائق الثابتة أنه عند حلول المصائب الشديدة لا يلجأ الناس إلا إلى الله ﷻ. فمثلا إن النصارى يؤلِّهون المسيح عليه السلام، ولكنهم لا يبتهلون إليه بسبب الحرب الدائرة حاليًّا بين إنجلترا وألمانيا، وإنما يدعون الله تعالى لتفريج الكروب. فلو كانوا موقنين بألوهية المسيح حقًّا لما فعلوا هكذا أبدًا. و لم يَدْعُ الكفارُ اللَّاتَ والعُزَّى لما حمي الوطيس في معركة بدر، حتى إن أبا جهل نفسه لم يستصرخ بهذه الآلهة الباطلة، بل دعا الله ﷻ قائلا: اللّهم إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندك فأَمْطِرْ علينا حِجارةً من السماء أَوِ ائْتنا بعذابٍ أَليمٍ. وفعلاً استجاب الله ﷻ لابتهاله فأُمطروا بالحصى ببدر كما حلّ بهم العذاب الأليم بأشكال أخرى (البخاري: كتاب التفسير، سورة الأنفال). فلو كان في قلوبهم يقين راسخ وتأثير عميق لألوهية اللات والعزى لاستغاثوا بهما في ذلك الوقت العصيب، ولكنهم لم يدعوهما، بل دعوا الله تعالى، وهذه هي شهادة الفطرة.

ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٥﴾

التفسير: وقال القرآن إنهم ﴿بربهم﴾ يُشركون، فذكَر "الرب" مضافًا إليهم، وذلك تعنيفًا لهم واستثارةً لحميتهم، لأن المرء يغار على ما هو لـــه. فكأن المعنى: إن الله ربكم، وليس بينكم وبينه خصومة ولا عداوة تضطركم للإشراك به؛ فما لكم تستغيثونه عند الشدائد، وحين يكشف عنكم الضر تعودون إلى آلهتكم الباطلة ثانية.

لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾

التفسير: واللام في ﴿ليكفُروا﴾ للعاقبة، والمعنى أن الله تعالى حين يكشف عنهم المصائب والأهوال فإنهم يكفرون بنعمته بدلاً من أن يشكروا لـــه، زاعمين بأن ما حدث إنما كان بفضل كذا وكذا من الآلهة؛ ولا يمكن – والحال هذه – أن يستحقوا الفضل الإلهي الدائم. وكأن الله يقول لهم: من الممكن أن نستجيب لتضرعاتكم المؤقتة رحمةً منا ونرفع عنكم الآفات لبعض المرات، ولكن لن نفعل ذلك دائمًا، بل سوف نرفض أدعيتكم في يوم من الأيام، لنحيطكم بالعذاب.

وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٧﴾

شرح الكلمات:

نصيبًا: النصيب: الحظ (الأقرب).

التفسير: لقد كشف القرآن الكريم هنا عن جانب شنيع آخر للعقيدة الوثنية، وهو أن الوثنيين ينسبون نعم الله إلى كائنات لا دليل عندهم على وجودها؛ وهذا برهان عظيم على بطلان الشرك. لقد اخترع الوثنيون في تأييد الشرك شتى

الأمور الفلسفية التي يحتار أمامها ضعاف العقول بعض الشيء، فيصعب عليهم التمييز بين التوحيد والشرك؛ ولكن الدليل الذي ذكره القرآن هنا سهل الفهم جدًّا، ويبلغ من القوة بحيث إنه يُبطل الوساوس الفلسفية كلها. وإليكم بيانه:

فَلْنَدَع المبحث الأصلي جانبًا وهو: هل يمكن أن يكون هناك أكثر من إله واحد، لأن احتمال وجود الشيء أمر، وأما وجوده بالفعل فشيء مختلف تمامًا؛ فلنسلِّمْ – جدَلاً – أن وجود أكثر من إله ممكنٌ، ولكن هذه الإمكانية لا تُثبت أن ذلك الإنسان أو الصنم المعيَّن الذي اتخذه الناس إلهًا مع الله تعالى هو بالفعل إله حق، بل لا بد من تقديم الأدلة على كونه من الآلهة الحقة التي افتُرض وجودها. فالله تعالى يتحدى الكفار قائلا: خُذوا أيًّا من آلهتكم وقدِّموا ما في أيديكم من أدلة على كونه إلـــهًا بالفعل؛ وحيث إنكم لا تملكون أي دليل على كون أي من آلهتكم إلهًا حقًّا فكيف تستطيعون بالحجج الفلسفية الهروبَ من قبول التوحيد. هذا الدليل يبلغ من القوة بحيث لا يقدر أي من المشركين مقاومتَه. لنفترض أنه من الممكن أن يكون هناك أكثر من إله، ولكن كيف ثبت بذلك أن "كالي" أو "رام" أو "كرشنا" أو المسيح أو غيرهم أيضًا آلهة في الواقع. كلا، بل لا بد من تقديم الأدلة على ذلك الزعم، وهذا ما لن يقدر عليه أي من المشركين أبدًا. إنهم يسوقون دائمًا بعض الأمور الفلسفية أثناء الحوار دعمًا للشرك، ولكنهم لم ولن يستطيعوا أبدًا تقديم أي برهان معقول على كون شركائهم آلهةً بالفعل؛ ذلك لأن تقديم الأدلة الفلسفية على الشرك أمرٌ، وإثباتُ كونِ الشيء الضعيف إلهًا بالبرهان أمرٌ آخر تمامًا. والله تعالى قد أوجد بحكمته الكاملة كثيرًا من البراهين الدالة على ضعف كل ما اتُّخذ من دونه ﷻ إلهًا، وهذه البراهين تبلغ من القوة بحيث إذا سمعها أي مشرك تبخرتْ من رأسه نشوةُ الكبرياء والغطرسة على الفور.

لقد ذكرتُ هذا المعنى باعتبار ضمير الجمع للغائب في ﴿لما لا يعلَمون﴾ عائدًا على المشركين. أما إذا كان الضمير عائدًا على آلهتهم فالمعنى أنه لا علم لهؤلاء

الآلهة بما يعزوه إليها المشركون من صفات إلهية. فالأصنام والأنهار والجبال وغيرها من الأشياء التي يؤلّهونها إنما هي جماد لا شعور فيها؛ كذلك هو حال المسيح أو الحسين عليهما السلام، اللذَين ينسب إليهما بعضُ الناس الألوهيةَ قائلين إن المسيح أو الحسين هو الذي وهب لي كذا وكذا من النعم (إنجيل يوحنا ١: ١، وتحفة الاثنا عشرية، النسخة الفارسية ص ٩٣-٩٤)، مع أنه لا علم لهذين البريئَين بما يقال عنهما، إذ لم يدّع أي منهما في حياته بما نُسب إليه بعد وفاته.

أما قوله تعالى ﴿تاللهِ لتُسئَلُنّ عما كنتم تفتَرون﴾ فليس معناه أنهم سوف يُسألون عن الافتراء مجرد سؤال، وإنما المراد أنهم سيحاسَبون ويعاقَبون عليه حتمًا. وهذا التعبير شائع لدى كل قوم وفي كل بلد تقريبًا.

لقد قال بعض الجهلة: إن كلمة "تاللهِ" – التي تعني: أحلف بالله – دليل على أن هذا القرآن ليس من عند الله تعالى، لأنه لو كان وحيًا منه ﷻ لما قال عن نفسه ﴿تاللهِ﴾، وإنما قال: بعزتنا وجلالنا (تفسير القرآن لـِ "ويري").

ولكن هذا الاستدلال ليس بسليم، ولا بأس بهذا التعبير، إذ هو من قبيل التعابير المَلَكية، والغرض منه إظهار الجلال والهيبة؛ فمثلاً يقول الأب لابنه أحيانًا: إن أباك يأمرك بهذا، ولا يُفهم منه أبدًا أنه ينفي كونه أبًا له، وإنما يريد التأكيد والشدة. وكذلك يقول الملك في بعض الأحيان: إن ملككم يأمركم بكذا، ولا يُفهم منه أبدًا أنه ينفي كونه ملكًا وأن الأمر صادر عن ملِك آخر.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٨﴾

شرح الكلمات:

سبحانه: سبحانَ اللهِ: أي أبرِّئ اللهَ من السوء براءةً (الأقرب).

يشتهون: شهاه يشهوه وشَهِيَه يشهاه شهوةً: أحبَّه ورغِب فيه وتمنّاه. واشتهاه بمعنى شَهِيَه (الأقرب).

التفسير: ليس المراد من هذه الآية أن الله تعالى سخط عليهم لأنهم يصفون لله البناتِ بدلاً من البنين، فإن الله تعالى يَكره نسبةَ الذكور إليه كما يَكره نسبة الإناث؛ إذ يقول في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿تكادُ السماواتُ يتفطَّرنَ منه وتنشقُّ الأرضُ وتَخرُّ الجِبالُ هَدًّا۝ أَنْ دعَوا للرحمنِ ولدًا﴾(مريم: ٩١ و٩٢). فالآية تشير إلى غباء المشركين، وتبين أن الإنسان حين ينحرف عن الطريق السوي فإنه يرضى حتى بما يتعارض مع معتقداته أيضًا. فهؤلاء القوم ينسبون إلى الله ﷻ البناتِ من ناحية، ومن ناحية أخرى يعتبرون الإناثَ أحقر شأنًا من الذكور، ولو كانوا يعقلون شيئًا لما نسبوا إلى الله ما يحتقرونه.

لقد قدم الله بذلك دليلاً على ضرورة الوحي، مبينًا كيف أن الإنسان إذا ما حاول البحث عن الهدى من دون الاستعانة بنور الوحي ارتكب أخطاء فادحة مكشوفة؛ إذن فما أكثرَ الإنسانَ عرضةً للخطأ في القضايا التي هي أكثر من هذا تعقيدًا وصعوبةً! فثبت أن الدلالة على الطريق الحق هو من اختصاص الله وحده.

ولما كان بإمكان الكافرين أن يحتجوا هنا ويقولوا: نحن لا نقصد الإساءة إلى الله حين نقول إنه قد اتخذ لنفسه البنات، لأن البناتِ أيضًا من نِعمه، لذلك رد الله ﷻ عليهم في الآية التالية.

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

بُشِّر: بشَّره: أخبره ففرِح (الأقرب).

كظيم: المكروب (الأقرب). والكُظوم: احتباس النفس، ويعبَّر به عن السكوت. كظَم الغيظَ: حبَسه. كظَم السقاءَ: شدَّه بعد ملئه مانعًا لنفسه (المفردات).

التفسير: هنا يوبخهم الله تعالى ويقول: حين يُخبَر أحد منهم بولادة بنت في بيته يسودّ وجهه، وتجتاحه مشاعر الخجل والعار حتى يصعب عليه ضبط عواطفه وأحاسيسه، ولكنه لا يشعر بأدنى خجل حين ينسب إلى الله الذي هو نور على نور ما يعتبره لنفسه وصمةَ عار في الجبين.

يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

شرح الكلمات:

يتوارى: تَوارَى عنه: استتر (الأقرب).

هُون: هانَ الرجلُ هُونًا: ذلَّ وحقُر؛ ضعُف. الهُون: الخزيُ (الأقرب).

يدُسّ: دَسَّ الشيءَ تحت التراب: أدخله فيه ودفَنه تحته وأخفاه (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن هذا الشخص يقع في حيرة من أمر ابنته، فلا يدري- رغم عاطفة الأبوة - هل يُبقيها على قيد الحياة أم يخفيها حيةً في التراب.

يظن العامة أن وَأْد البنات كان عادة شائعة لدى العرب، وهذا خطأ تمامًا، وإلا لقلَّ عدد الإناث بينهم بشكل ملموس جدًّا. لا شك أن العرب كلهم تقريبًا كانوا يكرهون ولادة البنت، ولكن لم يمارس وَأْدَها بالفعل إلا بعضُ العمائد المصابين بالكبرياء والغرور. إن كراهية ولادة البنت شيء، ووأدها شيء آخر تمامًا، فما زال الناس حتى اليوم أيضًا يكرهون ولادة البنت عمومًا، إلا ما شاء الله، ولكن قلما يئدونها. علمًا أن وأد البنات في مكة كان نادرًا جدًّا (تاريخ الإسلام السياسي الجزء الأول ص ٣٧). إذن فالآية لا تنص على كون هذه العادة شائعة لدى الجميع، وإنما تُدينها لأن بعضًا من أعيان القوم كانوا

يمارسونها، وأما العرب عمومًا فكانوا يرون هذه العادة مدعاة للشرف، وإن كانوا لا يرتكبونها.

ثم قال الله ﷻ ﴿ألا ساء ما يحكُمون﴾.. أي أن الذين يكرهون ولادة الإناث عندهم إنما يأتون أمرًا جدَّ منكَر، إذ لولا الإناث لما كان لهم ولا لذريتهم وجود.

لقد عمل القرآن الكريم منذ البداية على توطيد شرف المرأة والاعتراف بحقوقها، ومع ذلك لا يزال الأعداء يثيرون ضجة حتى اليوم بأن محمدًا قد ظلم النساء! ليتهم يدُلُّوننا على كتاب واحد غير القرآن قد دافع عن حقوقهن منذ أول يوم من نزوله. إنه القرآن الكريم وحده الذي يتصف بهذه الميزة.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

شرح الكلمات:

المَثل: الشبهُ والنظير؛ الصفةُ؛ الحُجةُ؛ يقال: أقام له مثلاً أي حجة؛ الحديثُ، يقال: بسَط له مثلاً أي حديثًا (الأقرب).

التفسير: كلمة المَثل هنا تعني الحديث، وتعني الآية أن الذين لا يؤمنون بالآخرة لا يتكلمون إلا بالسوء، في حين أن ما ينـــزل من عند الله لا يكون إلا خيرًا.

لقد أوضح الله ﷻ هنا الموضوعَ الحيوي الرئيسي الذي تتمحور حوله هذه السورة، حيث أخبر أن الذين ينكرون يوم القيامة يرفضون الوحي أيضًا، ويريدون أن يخترعوا بأنفسهم منهجًا لهم، ولكنهم يفشلون في ذلك فشلاً ذريعًا حيث ينقلب عليهم كل ما يقترحونه. ولكن الوحي الإلهي يخلو من العيوب تمامًا، ويتسم بالمحاسن كلها، فكيف يسعهم إذًا إنكار ضرورة الوحي الإلهي.

قد يتساءل أحد هنا: لماذا قال الله إن الذين لا يؤمنون بالآخرة كلامهم مليء بالأخطاء، بدلاً من أن يقول: الذين لا يؤمنون بالوحي كلامهم مليء بالأخطاء؟

الجواب: إن من الأساليب التي يمتاز بها القرآن الكريم أنه حين ينبّه على عيب من العيوب فإنه يسلط الضوء أيضًا على أسبابه ودواعيه، وهذا ما فعله هنا، لأن إنكار الكافرين ضرورةَ الوحي راجع في الواقع إلى إنكارهم يوم القيامة، لأن من يؤمن بالقيامة لا يمكن أن ينكر ضرورة الوحي، لإيمانه أن زمن ما بعد الموت أهم فترة من الحياة الإنسانية، وبما أنه لا رجعة بعد الموت إلى الدنيا لذلك سيرى ضروريًّا أن يدلّه العليم الخبير بذلك العالَم الأخروي على ما ينفعه في حياته هنالك، وهذا هو غرض الوحي، ولذلك قال: "لا يؤمنون بالآخرة"، ولكن هذا المعنى ما كان ليؤدَّى لو قيل إن الذين "لا يؤمنون بالوحي".

وختم الله الآية بقوله ﴿وهو العزيز الحكيم﴾، لأن الغالب وحده يستطيع تنفيذ ما يريد، ولأن الحكيم وحده يقدِر على بيان الحِكم؛ فلا بد أن يكون ما يقترح العزيز الحكيم هو المنهج الأفضل والأصلح لنجاة البشر، أما الذي ليس بحكيم ولا عزيز فمن المحال أن يأتي بالتعليم الحكيم، أو يقدر على تحقيق ما يدعو إليه من الحكمة.

والحكمة الأخرى لذكر هاتين الصفتين هي التأكيد على ضرورة يوم الآخرة، إذ بيّن الله تعالى أن فعل الحكيم لا يخلو من الحكمة، ولولا الآخرة لبدا خلق الإنسان عملاً خاليًا من الحكمة. كما أن غلبة الإله العزيز لا يمكن أن تكتمل في هذه الدنيا فلا بد من يوم آخر لذلك.

ولو قيل: لم لا تكتمل غلبته ﷻ هنا؟ فالجواب لأنه حكيم أيضًا، فلو ظهرت غلبته ﷻ بصورتها الكاملة في هذه الدنيا لم يبق للإيمان جدوى ولا قيمة، وصار بلا طائل.

وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾

شرح الكلمات:

دابة: راجِعْ شرح كلمات الآية رقم ٥٠.

أجل: الأجَل: مدةُ الشيء والوقتُ الذي يحل فيه (الأقرب).

ساعة: الساعة: الوقتُ الحاضر؛ القيامة؛ وقيل: الوقتُ الذي تقوم فيه القيامةُ؛ وعبارةٌ عن جزء قليل من النهار أو الليل، يقال: جلستُ عندك ساعةً من النهار أو الليل.. أي وقتًا قليلاً منه (الأقرب).

التفسير: هذه الآية رد على شبهة قد تتولد في قلوب الكافرين بسبب الآية السابقة، وتلك الشبهة هي: لو كان ما يقترحه الإنسان منهجًا خاطئًا يدفع إلى الهلاك وكان المنهج الإلهي وحده الذي يهدي إلى النجاة.. لكان لزامًا أن يُهلك الله الكفارَ جميعًا على الفور، ولكن الواقع يخالف ذلك إذ لا يبرح الكافرون يحققون أنواع الرقي المادي، فثبت أنه لا يمكن تخطئتهم كلية، بل يمكن أن يكونوا هم أيضًا على الحق!

فردّ الله ﷻ على هذه الشبهة وقال: دَعُوا الوحي الإلهي جانبًا إذ لا تؤمنون به، وأَخبرونا: هل يعاقب الله على الفور من يقع في الأمور التي تروها أنتم أيضًا خلافًا للمشيئة الإلهية كالسرقة والقتل والنهب وغيرها؟ فما دام الله يمنحهم المهلة فكيف يصح أن تستدلوا – بما يمنحه الله لمنكري وحيه من مهلة – أن هذا الوحي ليس من عند الله، وإلا لعجّل لهم العذاب و لم يُبق منهم أحدًا.

ثم بيّن الله تعالى سبب تأخير العذاب عن المجرمين وهو أنه لولا قانون المهلة لما استمر النسل الإنساني؛ ذلك لأنه ﷻ لو أهلك كلَّ مجرم فور ارتكابه الجريمة لم يبق من بني آدم أحد بعد فترة من الزمن.

قد يقول قائل هنا: ليس جميع من في الدنيا مجرمين، بل بينهم الصالحون أيضًا الذين يتسببون في استمرار النسل الإنساني؟

والجواب: ليس ضروريًّا أن يكون كل واحد من آباء الصالحين الموجودين اليوم حتى زمن آدم صالحًا. فلو أهلك الله آباءهم المجرمين الأوائل هؤلاء لم يكن للصالحين الذين خرجوا من ذرياتهم وجود. فثبت بذلك أنه ليس ضروريًّا أن يعاقَب المرء على جريمته من فوره. وهذا يشكل دليلا آخر على وجود الآخرة التي سوف تكتمل فيها عملية جزاء الأعمال. أما إذا أنكرنا وجود الآخرة لاعتُبرت القرارات الإلهية ناقصةً.

وهناك إشكال آخر يجب حله: لماذا قال الله تعالى هنا ﴿ولو يؤاخذُ اللهُ الناسَ بظلمهم ما ترَك عليها من دابّةٍ﴾، مع أن الإنسان هو وحده المكلَّف بأحكام الشرع، فما ذنب هذه الحيوانات المسكينة حتى تعاقَب معه؟

والجواب على ذلك هو ما صرّح به الله في مستهل هذه السورة بأن الحيوانات الأخرى قد خُلقت لنفع الإنسان؛ فلو هلك لما كان لهذه الحيوانات من حاجة، بل لقامت القيامة الشاملة.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

شرح الكلمات:

تصف: وصَف الشيءَ: نَعَتَه بما فيه وحلّاه. ووصَف الطبيب للمريض وصفةً: بيّن له ما يتداوى به (الأقرب).

الحُسنَى: ضدُّ السُوءَى؛ العاقبةُ الحسنة؛ النظرُ إلى الله؛ الظفرُ؛ الشهادة (الأقرب).

لا جَرَمَ: راجع شرح الآية رقم ٢٤.

مفرَطون: أفرطَ الأمرَ: نَسيَه؛ ترَكه وخلَّفه. أفرطَ عليه: حمَّله ما لا يطيق. وما أفرطتُ من القوم أحدًا أي ما تركتُ (الأقرب).

التفسير: تتناول هذه الآية الموضوعَ السابق نفسه ولكن بأسلوب آخر حيث تقول: كيف يتوقع الكافرون من الله مصيرًا حسنًا وهم يعزون إليه تعالى ما لا يرضون به لأنفسهم؟ كلا، بل إن من يعزو إليه ﷻ العيوب لا بد أن يرى عاقبة سيئة.

ثم قال الله تعالى ﴿وأنهم مفرَطون﴾.. أي كما أنهم تركوا الله تعالى كذلك سيتركهم الله في العذاب وينساهم.

تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٤﴾

شرح الكلمات:

وَلِيُّهم: الولي: المحبُّ والصديق؛ النصيرُ. وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ أحدٍ فهو وليُّه (الأقرب).

التفسير: أي أن معارضي الأنبياء السابقين انخدعوا بقول الشيطان لهم بأنهم لن يعاقَبوا على أعمالهم فاطمأنوا إليه وضلّوا؛ وكذلك حال أعداء الحق اليوم، فإنهم رغم إتيان المعاصي يجلسون مطمئنين، ولا يدرون أن عذابًا أليمًا يقترب إليهم باستمرار.

وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٥

التفسير: يقول الله تعالى: هناك سبب آخر لنـــزول الوحي ألا وهو الاختلاف الشديد الموجود بين الناس فيما يتعلق بالأخلاقيات والدين. هل كان هناك من سبيل لرفع هذه الاختلافات بينهم إلا أن يأتيهم العلم اليقيني من عنده ﷻ؟ ولقد نـــزل هذا الكتاب بهذا العلم اليقيني. فلو أدرك الناس أن هذا الوحي نزل من عند الله تعالى أمكنهم إزالة هذه الاختلافات، وإلا فكيف يتخلَّون عن موقفهم وكل واحد يرى بطبعه أن موقفه أفضل من موقف غيره؟

كما أن هذه الآية توجه اللوم إلى الكفار على قولهم: ما الحاجة إلى بعث نبي جديد وقد ظهر أنبياء كثيرون من قبل. إنهم لا يفكرون أن أعمالهم هي التي استدعت بعث هذا النبي الجديد، إذ تركوا الحق واختلفوا. لو لم يختلفوا لما كانت هناك حاجة لظهور نبي جديد. الغريب أنهم رغم إصابتهم بمرض الاختلاف يعترضون على مجيء طبيب أرسله الله ﷻ ليعالجهم من مرضهم هذا!

قد يعترض أحد على المعنى الذي ذكرته آنفًا ويقول: لنفترض أن الناس ظلّوا عاملين بشرع موسى عليه السلام من دون أن يختلفوا فيه، أما نزلت الشريعة الكاملة عن طريق نبينا الكريم ﷺ؟

والجواب: إنْ هو إلا افتراض لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة، لأن الناس ما كانوا لينتهوا في الواقع العملي عن الاختلاف، وبالتالي لم يكن بد من نزول هذه الشريعة الكاملة.

ولو سلّمنا جدلاً بإمكانية وقوع هذا المستحيل فقد سبق أن أجاب الله ﷻ على ذلك أيضًا بقوله ﴿قُلْ لو كان في الأرض ملائكةٌ يمشُون مطمئِنِّين لنـــزّلْنا عليهم مِن السماء ملَكًا رسولا﴾(الإسراء:٩٦) أي لو أن كل البشر صاروا صالحين

كالملائكة لما كانت ثمة حاجة لبعث نبي، بل لصار الجميع أنبياء يتلقون الوحي من رسلنا الملائكة، ولما كان هناك منكر ولا كافر. ولكن لم يصبح أهل الدنيا كلهم أبرارًا قط، وبالتالي لم يتوقف بعث الأنبياء من عند الله أيضًا.

وبيّن بقوله تعالى ﴿وهدًى ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ أنه يجب عليك يا محمد أن تسعى بالقرآن لإزالة الاختلاف من بين المختلفين في أمرهم من جهة، ومن جهة أخرى عليك أن تسعى لكي يعمل المؤمنون بالقرآن ليزدادوا رحمةً وزلفى عند الله تعالى.

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٦

التفسير: الماء هنا يعني الوحي، والدليل على ذلك أن الله ﷻ قد قال بعد الحديث عن نزول الماء ﴿إن في ذلك لآيةً لقوم يسمعون﴾؛ ونزول الماء المادي لا يكون آية لقوم يسمعون، إنما هو آية لقوم يشاهدون ويتدبرون فيدركون. فكلمة ﴿يسمعون﴾ توضّح جليًّا أن المراد من الماء هنا هو الوحي. فالله تعالى يلفت الأنظار إلى وحي الأنبياء السابقين موضحًا: كم من مرة أنزلنا من السماء الماء الروحاني فأحيينا به العالم، ولو أنكم سمعتم أخبار الأنبياء الذين خلوا من قبل لصدّقتم بما نزل إليكم من الحق.

وقد جاء بقوله تعالى ﴿فأحيا به الأرضَ﴾ كدليل على كون القرآن ﴿هدًى ورحمةً﴾ حيث بين ﷻ أن الوحي ما دام قد أحيا الموتى في الماضي فلم لا يكون القرآن سبب هدًى ورحمة وحياة للمؤمنين. إن ما وقع في الماضي لا بد أن يقع اليوم.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

شرح الكلمات:

الأنعام: النَّعَم: الإبلُ والشاءُ، وقيل: خاص بالإبل. وقال في المصباح: النَّعَم: المالُ الراعي، وهو جمعٌ لا واحد له من لفظه، وأكثر ما يقع على الإبل. قال أبو عبيد: النَّعَم: الجمال فقط، ويؤنَّث ويذكَّر، وجمعُه أنعام. وقيل: النَّعَم: الإبلُ خاصة، والأنعامُ: ذواتُ الخف والظلف وهي الإبل والبقر والغنم. وقيل: يُطلَق الأنعام على هذه الثلاثة، فإذا انفردت الإبل فهي نَعَمٌ، وإن انفردت الغنم والبقر لم تسمَّ نَعمًا (الأقرب).

فَرْث: السِّرْجين ما دام في الكِرْش (الأقرب).

سائغًا: السائغ: السهلُ المدخَلِ من الطعام والشراب (الأقرب).

التفسير: إن قوله ﷻ ﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرةً﴾ من الروعة والشفافية بمكان. إن الأنعام تهيئ للإنسان الغذاء على شكل لبن ولحم، كما تنفعه في حمل أثقاله. وكان الجمل وسيلة النقل عمومًا في الجزيرة العربية لندرة البقر والثور هناك، ولكن في المناطق المختلفة الأخرى من العالم تخدم البقر الإنسانَ كثيرًا في نقل أحماله. أما المعز والنعاج فهي أيضًا تُستخدم لهذا الغرض في المناطق الجبلية، خاصة أثناء السفر في أعالي الجبال؛ فإن الرعاة يضعون على ظهور هذه الحيوانات الصغيرة أثقال السياح نظيرَ بعض النقود. ولقد رأيت في منطقة "كانغره" رعاةً قادمين من جبال "لاهول" وقد وضعوا أحمالهم على متون مئات من الغنم، على كل شاة حوالي عشرة أو عشرين كيلو غرامًا. ويا لـــه من منظر رائع!

وجديرٌ بالملاحظة أن كلمة ﴿عبرة﴾ الواردة هنا مشتقّة من العبور الذي يدل على السفر أيضًا. وقد أشار الله باستخدامها إلى معنى رائع لطيف جدًّا وهو أنكم

تستعينون بهذه الأنعام في أسفاركم المادية، ولكن لا تستعينون بها في رحلتكم العقلية، فلا تتدبرون في حالة هذه الحيوانات حتى يعبر بكم هذا التدبرُ من عالم الجهل إلى دنيا العلم والمعرفة. وهذا هو معنى كلمة العبرة أيضًا، إذ تعني انتقالَ الذهن برؤية شيء إلى أمر آخر وبالتالي فهمُ حقيقة الأمر قياسًا على ذلك الشيء. فلا جرم أن ورود كلمة ﴿عبرة﴾ خلال الحديث عن الأنعام قد أضاف إلى الموضوع شفافية رائعة.

وما هي تلك العبرة؟ لقد فصّلها الله تعالى إذ قال: إن هذه الأنعام تأكل العشب والكلأ الذي يتحول إلى الفرث الذي في الكرش، ثم ينقلب بعض هذا الفرث إلى الدم، ثم يصبح جزءٌ من الدم لبنًا خالصاً سائغًا لدرجة أن أشد الناس نفاسةً وحساسية أيضًا يشربونه بمنتهى اللذة والمتعة، ولا يجدون في شربه أي غضاضة وانقباض؛ مع أن اللبن هو نتاج الدم، حيث يتولد الدم من الفرث المتكون في كرش الحيوان من غذائه، والذي يصل إلى الأمعاء، ثم يُنقل عبر العروق إلى القلب وحين يصل هناك يتحول إلى الدم. ومن الدم ما يصل إلى الضرع ويصير لبنًا.

فالله تعالى ينبه هنا أن هذا الكلأ والعشب – الذي لا يستطيع الإنسان أكله – حين يصل إلى بطن الحيوان يتحول إلى لبن خالص من أي نجاسة وسائغٍ للشاربين. إن الإنسان لا يقدر على تحويل هذا العلف إلى لبن، ولكن الله ﷻ يحوّله إلى لبن في جسم الحيوان؛ فينبغي للإنسان أن يتلقى من ذلك درسًا.. ألا وهو أن ذلك التعليم الفطري.. الذي لا يستطيع به الإنسان إحراز اليقين، وإنما يبقى ملطَّخًا بصنوف الرذائل والنقائص.. يصبح كاللبن الخالص السائغ بعد أن يمر هذا التعليم عبرَ الآلة الروحانية التي خلقها الله ﷻ، فلا يضر بصحة الإنسان الروحانية شيئًا، بل ينفعه في كل مجال. فلم لا تأخذون العبرة من عملية صناعة اللبن في الحيوان، ولم لا تدركون أن الميول الإنسانية الطبيعية لا يمكن أن تصير غذاء روحانيًّا حقيقيًا للإنسان ما لم يحوّلها الله ﷻ إلى لبن روحاني. ولكن هذا

العمل هو خارج نطاق قدرة الإنسان، وما دام الإنسان لا يقدر على تحويل الكلأ إلى لبن فكيف يستطيع أن يحوّل الميولَ الطبيعية غيرَ المهذَّبة إلى تعليم سامٍ.

ثمة إشكال لفظي في الآية وهو أن الله تعالى قد استخدم في ﴿بطونه﴾ ضمير الواحد للغائب مع أنه راجع إلى الأنعام التي هي جمعٌ؟ ولقد أجاب المفسرون عليه بوجهين: أحدهما أن ضمير الفرد ورد نظرًا إلى المعنى المذكور وليس إلى اللفظ، بتقدير (بطونِ ما ذَكَرْنا)؛ وثانيهما أن الضمير راجع إلى كل فرد من جنس الأنعام (انظر تفسير فتح البيان). وكلا الوجهين صحيح وفق القواعد العربية.

هذا، وتشكل هذه الآية برهانًا عظيمًا على أن الذي أنزل القرآنَ هو الذي خَلَقَ الكون أيضًا، ذلك أن كيفيةَ تكوُّنِ اللبن – كما ذكرتها الآيةُ – لم تكن معروفةً لدى الإنسان في زمن نزول القرآن. وعملية تكوُّن اللبن تتم كما يلي: عندما يصل الغذاء من كرش الحيوان إلى أمعائه يتحول إلى الفرث، ومن هذا الفرث ما يتحول إلى الدم، ثم يصير بعض الدم لبنًا. وهذه الحقيقة لم يكتشفها الإنسان إلا بعد نزول القرآن بزمن طويل، ولذلك نجد المفسرين المتأخرين يشيرون إلى أخطاء المفسرين القدامى في بيان كيفية تكوُّن الدم. غير أن ما ذكره المتأخرون أيضًا لا يتفق تمامًا مع ما أكدته البحوث العلمية، ولكن كلمات القرآن الكريم متطابقة تمامًا مع الاكتشافات الحديثة وهي: أن الغذاء يصل من معدة الحيوان إلى الأمعاء، وهناك جزءٌ لطيف من هذا الغذاء المهضوم يصل مباشرةً إلى القلب عبرَ العروق وينقلب لدى وصوله إلى الأوردة دمًا، وهناك جزء لطيف آخر يصل من المعدة مباشرة إلى الكبد، ثم ينصبّ في القلب عبرَ الأوردة ويصير دمًا؛ ولدى انصباب الدم في الضرع يحدث من التفاعل ما يحوّله إلى اللبن.

كان الناس في الماضي يجهلون هذه الحقيقة بحيث إن المفسرين القدامى قد عانوا مشكلة كبيرة في شرح هذه الآية، لأنهم ظنوا بحسب الأفكار السائدة في زمنهم أنه خلال تحوُّل الغذاء إلى الفرث والدم يقع تفاعلٌ يُنتج اللبن. فقد كتب صاحب الكشاف: "إذا أكلت البهيمةُ العلفَ فاستقرّ في كرشها طَبَخَتْه، فكان أسفَلُه

فرثًا، وأوسَطُه لبنًا، وأعلاه دمًا" (راجع أيضًا البحر المحيط، ابن كثير). مع أن الآية تقول إن الغذاء يتكون لبنًا بعد مروره بمرحلتي الفرث والدم، وهما الشيئان اللذان لا يرضى أحد بتناولهما، ولكن عندما يصير الغذاء لبنًا يستسيغ الناس شربه بكل شهية ومتعة، لأنه عندئذ يكون خالصًا نقيًّا مما يوجد في الفرث من نجاسة وفي الدم من سموم.

مع العلم أن هذه الآية لا تعني أن لا أحد يقدر على صنع اللبن ولو بكمية ضئيلة، فقد يتمكن الإنسان في المستقبل من صنع اللبن بمقدار قليل، ولكنه لا يستطيع تزويدَ الدنيا كلها بهذا الغذاء الهام. فإن الإنسان قد استطاع صنع المطر بتفاعل بعض الغازات، ولكن تلك القطرات القلائل من الماء لا يمكن أن تغني غناءَ الأمطار. كذلك لا غرابة لو تمكَّنَ الإنسان في المستقبل من صنع اللبن من العلف، لأن تزويد البشر باللبن سيبقى منوطًا بالأنعام شأنَ الماء الذي هو منوط بالسحب.

كما أن الآية تتضمن الإشارةَ إلى أن الإنسان يمكن أن يفسد غذاء الحيوان، لكن لا يقدر على صنع اللبن منه، وبالمثل فيمكنه أن يتلاعب بتعاليم الأنبياء ويفسدها، لكنه غير قادر على تحويل ما يوجد في العقل الإنساني من الحقائق الفطرية غيرِ الصافية إلى تعليم روحاني سامٍ خالص من الشوائب.

وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

الأعناب: جمعُ العنب وهو: ثمرُ الكَرْم وهو طريٌّ، فإذا يبس فهو الزبيب (الأقرب).

سَكَرًا: السكَر: الخمرُ؛ نبيذٌ يُتّخذ من التمر والكُشوث؛ كلُّ ما يُسكِر؛ الخَلُّ؛ الطعام (الأقرب).

التفسير: لقد عانى المفسرون كثيرًا في تفسير هذه الآية. فمنهم من فسر كلمة ﴿سَكَرًا﴾ بمعنى الخمر. ولكنه لما واجه مشكلة أخرى – وهي أن الله تعالى يتحدث هنا عن نعمه ولكن الخمر حرام – أجاب عليها قائلاً: إن الآية نزلت قبل تحريم الخمر وهي منسوخة! (تفسير القرطبي)

ومنهم من فسر ﴿سَكَرًا﴾ بمعنى الطعام تجنبًا للمعضلة المذكورة أعلاه. ولكن اعترض عليه الآخرون وقالوا: هذا سيؤدي إلى التكرار عبثًا، لأن الطعام قد سبق ذكره في قوله تعالى ﴿ورزقًا حسنًا﴾؟ فقيل في الجواب إن كلمة ﴿سَكَرًا﴾ تشير إلى ما في هذه الأشياء من قوة، بينما يشير قوله تعالى ﴿ورزقًا حسنًا﴾ إلى ما فيها من غذاء! (تفسير البغوي)

الواقع أن المفسرين قد واجهوا هذه الصعاب لأنهم حاولوا بهذه الآية الاستدلالَ على جواز تناوُلِ ما هو (سَكَر) أو عدم جوازه؛ مع أن الله تعالى إنما يريد أن يبين هنا أنكم كثيرًا ما تتصرفون في طيباتنا فتفسدونها، فالشيء الذي يكون طيبًا في حالته الأصلية يصير بتدخلكم نجسًا فاسدًا.

ثم قال الله ﷻ ﴿إن في ذلك لآيةً لقوم يعقلون﴾.. أي أن العاقلين يدركون أن استخدام الشيء في غير ما خُلق من أجله لا يأتي بطائل بل يؤدي إلى الفساد. فلا الإنسان بقادر على تقديم منهج روحاني، كما لا يحق له التصرف في التعليم الرباني ليصرفه عن الهدف الذي نزل من أجله، وإلا فلا بد من أن يفسد ويخرب.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٩﴾

التفسير: لقد ضرب الله ﷻ هنا مثالاً ثالثًا للتأكيد على ضرورة الوحي، وهو أَوضَحُ من المثالين السابقين؛ فبيّن أنه أنزل إلى النحل الوحيَ الذي يناسبها، فأمرها أن تتخذ بيوتها في الجبال والشجر والعرائش. وهذا الوحي عبارة عن الغريزة المودعة في النحل. وقد أكد الله بذلك أن كل الأشياء في مصنع هذا الكون تدور بفضل الوحي، فبعضها يدور بوحي خفيّ وبعضها بوحي جليّ.. بمعنى أن كل شيء إنما يؤدي الغرض من خلقه بالسير وفق ما أودع الله فيه من قوًى وميول، ولو أنه انحرف عنها قليلاً لما حقق الهدف من وجوده كما ينبغي.

لقد أوضحت هذه الآية أن نطاق الوحي الإلهي واسعٌ جدًّا. يظن البعض أن لا وحيَ مطلَقًا بعد رسول الله ﷺ (ختم النبوة والحركة الأحمدية ص ٧٤)، ولكن هذه الآية تؤكد أنه حتى الحشرات تتلقى الوحي من الله تعالى. والمراد من وحي هذه الحيوانات ما جبلها الله ﷻ عليه من غرائز وميول طبيعية. وهذا النوع من الوحي ينـــزل بشكل متقطع حتى على البشر العاديين، حيث تخطر بقلب المرء فجأةً فكرةٌ نافعة لـــه جدًّا. إن جميع المخترعين تقريبًا يقولون إن معظم ما اخترعوه قد أُلقيتْ فكرته في قلوبهم فجأةً، أو أنهم فكّروا في بعض المخترعات من أجل بحثهم العلمي، ولكنهم وجدوا حلولاً لكثير من المشاكل التي كانت تعترض طريقهم نتيجة موجة تولدت في وجدانهم فجأة. فهذا أديسون مثلاً – أكبر مخترِع عرفه التاريخ البشري – يعترف بذلك صراحة حيث يقول: لقد اخترعت حوالي ألف مخترَع، وكانت أكبر هذه المخترعات نتيجة فكرة أُلقيت في رُوعي فجأةً. والحق أن هذه هي الحالة التي يطلق عليها الصوفية الإلهام.

أما الحشرات فقد قام العلماء بخصوص النحل والنمل ببحوث مستفيضة، تؤكد أن الـــنمل تعـــيش بحســـب نظام رائع مذهل؛ فهي تتحاور بالأيدي، وتحافظ كالإنسان على موتاها، وتدّخر الغلال، وتجهّز لها مساكن مختلفة تلائم الطقس؛ فللشتاء مسكن وللصيف مسكن آخر، كما تبني الغرف بأكثر من طابق. وهناك دودة مـــن نوع خاص تسيل منها مادة تستخدمها النمل كاللبن، وهي حريصة عـــلى ادّخار هذه الديدان في بيوتها وتعتني بتغذيتها باستمرار لدرجة أنها في أيام قلـــة الغذاء تُطعم هذه الديدان أولاً، ثم تأكل ما يتبقى من الغذاء. كما أن النمل تتحارب فيما بينها، وتتصالح أيضًا. (The Book Of Knowledge, Word: Aunt)

فهناك نظام واسع محكم تعيش النمل بموجبه. وكل هذا نتيجة للوحي الذي يسمى الوحي الخفي.

والنحل أيضًا تعيش بحسب نظام رائع حتى إن بعض العلماء يقولون إن نظام خلية النحل أفضل من نُظم الإنسان، وأنها أرهف منه حسًّا في بعض المجالات. توجد في كل خلية ملكةٌ تطيعها النحلُ كلها. وأجيال النحل المختلفة لا تعيش كالبشر معًا، بل يعيش كل منها منفصلاً دون اختلاط مع من ليس من جيله. عندما تولَد ملكةٌ جديدة يسعى الجيل القديم للقضاء عليها، ولكن الجيل الشاب كله يهبّ لحراستها ويدافع عنها، وعندما تكبر الملكة الجديدة فإنها تشن مع جيلها الهجومَ على الجيل القديم وتطرده من الخلية لتستقل بها هي، أو تنهزم وتطير بجيلها لتصنع لها خلية جديدة مستقلة. وهناك تفاصيل مذهلة أخرى عن نظام النحل ولكن لا مجال لذكرها هنا (المرجع السابق ص ٤١٦ - ٤٢١).

ولقد اختار الله ﷻ مثال النحل ليوجّه نظر الإنسان إلى الذي منح النحلَ هذا العلمَ وجعل لها هذا النظام المذهل الذي لا يمكن أن يكون وليدَ تفكيرها. وهناك سبب آخر لاختيار مثال النحل وهو أن نظامها ينكشف للعيان بأدنى تدبر، وأيضًا لأن النحل تهيئ غذاء قد اعتبره الإنسان من أفضل الأغذية وأجودها. إن وجود النظام في حياتها يدل على أنها تتمتع بالعقل، ولكن عيشها بنمط واحد

باستمرار من دون تطوُّر يدل على أن هناك قوة خارجية أخرى وضعتْ للنحل هذا النظام الذي ليس مِن وَضْعِها هي أبدًا.

كما أن الله تعالى قد أخبر هنا أن النحل أنواع، فمنها ما تتخذ بيوتها في الجبال، ومنها ما تبنيها في شجر السهول، ومنها ما تصنعها في مساكن الناس أو عرائش الكَرْم وغيرها. ولقد لَفَتَ بذلك الأنظارَ إلى أن الذين يتلقون الوحي أيضًا صنوف.. أي يحتلون درجات متفاوتة؛ فمنهم من مقامه الجبال، ومنهم من مقامه الشجر، ومنهم من مقامه العريش. وكأن الله تعالى قد أومأ هنا إلى ما صرّح به في موضع آخر من القرآن الكريم بقوله: ﴿تلك الرسل فضّلْنا بعضَهم على بعض﴾(البقرة: ٢٥٤)

ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩

شرح الكلمات:

فَاسْلُكي: سلَك المكانَ سَلْكًا: دخَل فيه، وكذا سلَك الطريقَ أي دخَله وسارَ فيه متّبعًا إياه (الأقرب). للمزيد راجع شرح الآية رقم ١٣ من سورة الحجر.

ذُلُلاً: جمعُ ذَلول. ذلَّ البعيرُ: ضدُّ صَعُبَ، يقال: ذلّتْ له القوافي: سهُلتْ، فهو ذَلول (الأقرب). وقال ﴿فَاسْلُكِي سبلَ ربك ذُلُلاً﴾ أي منقادةً غيرَ متصعبة (المفردات).

ألوان: راجع شرح الآية رقم ١٤.

التفسير: في هذه الآية مزيد من وصف النحل، حيث قال الله تعالى: إن مما نوحيه إلى النحل أن تتغذى على رحيق الأزهار لتحوِّله إلى عسل، مستعينةً بما خلقنا في جسمها من أجهزة، ومتبعةً أوامرَنا.

ثم بيّن الله تعالى أن عسلها يخرج ألوانًا وأنواعًا، ولكن هناك قاسمٌ مشترَك بين كل لون ونوع منه، وهو أن فيه شفاءً للناس. وقد نبّه الله بذلك إلى أن ما أنزلناه على البشر من وحي فهو أيضًا نزل في أوقات مختلفة وبألوان شتى، حيث كان تعليم نبي مختلفًا في بعض الأحيان عن تعليم نبي آخر في بعض النواحي، ومع ذلك صار تعليم كل نبي شفاءً لمن نـــزل من أجلهم.

ولقد أشار الله ﷻ بقوله ﴿فَاسْلُكِي سبلَ ربك ذُلُلاً﴾ إلى أن تلقي الوحي ممكن لكل إنسان، شريطةَ أن يسلك الطريقَ الذي رسمه الله له في طاعة كاملة، وأن لا يلوّثَ فطرتَه النقية. فلو عاش عاملاً بالوحي الخفي الذي ينـــزل على البشر كلهم بل على كل مخلوق، لشَرَّفَه الله ﷻ بوحي يكون كالعسل في نقائه وشفائه للناس.. أي بوحي يزيل ضعفَهم البشري ويجعلهم كاملين في الروحانية.

ثم نبّه بقوله ﴿إن في ذلك لآيةً لقوم يتفكّرون﴾ إلى أنه من المستحيل أن يتم أي أمر في الدنيا بدون الوحي، فمن ظن أنه سينال الهدى بجهوده فهو على خطأ. ولقد ركّز سيدنا المسيح الموعود عليه السلام على هذا المعنى خاصةً حيث قال: إن ما يبذله المرء في أمور دنياه من جهود فهو بمنـــزلة الدعاء، وما يخطر بباله بعد ذلك من تدبير فهو بمثابة الوحي من عند الله تعالى (بركات الدعاء، الخزائن الروحانية ج ٤ ص ٢٣٠).

إذن فقد نبّهنا الله تعالى بضرب مثال النحل إلى أن الحياة الناجحة مستحيلة من دون الوحي، حتى إن الحيوانات أيضًا ليست في غِنًى عن الوحي، فهي الأخرى تتلقى نوعًا من الوحي، والنحل أوضح مثال لك. وما دام الله تعالى قد أنزل الوحي لرقي المخلوقات الأخرى بأسرها، مع أنها أقصرُ حياةً وأقل شعورًا من

الإنسان.. فكيف يمكن لنظامِ حياة الإنسان الدنيوية التي لها تأثيرها على حياته الأخروية أن يدار بدون نور الوحي.

هذا، وقد وصف الله ﷻ القرآن الكريم في مواضع عديدة منه بما وصف به العسل، مما يعني أن في القرآن نفس الميزة التي هي في العسل، أعني ميزة الشفاء، فقال الله تعالى: ﴿وننـــزّلُ مِن القرآن ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمِنين﴾(الإسراء: ٨٣)، وقال تعالى: ﴿يا أيّها الناس قد جاءتكم موعظةٌ من ربِّكم وشِفاءٌ لِما في الصدور﴾(يونس:٥٨)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هو لِلَّذِين آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ﴾ (فُصِّلتْ: ٤٥).

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠

شرح الكلمات:

أرذل العُمُرِ: الأرذَلُ: الدُونُ في منظره وحالاته؛ الرديء من كل شيء. وأرذلُ العمر: آخِرُه في حال الكِبَر والعجز (الأقرب).

التفسير: في الآيات السابقة كان الحديث يدور حول عدم قدرة آلهة المشركين الباطلة على إنزال هَدْي كوحي الله تعالى، أما الآن فقد ندّد الله ﷻ بالمشركين بأنهم أنفسهم لا يستطيعون أن يأتوا بكلام كامل كوحي الله تعالى؛ فقال: إنما يقدر على تقديم هدي كامل مَن بيده الخلقُ والموتُ، ويملك التصرفَ على العقل الإنساني، فثبت أنه ليس بوسع الإنسان تقديمُ منهج مكتمل، إذ ليس بيده الخلق حتى يُودِع في الناس كفاءاتٍ وطبائع تتناسب مع التعليم الذي يقترحه لهم، كما لا يملك الموتَ حتى يخلق أسباب الحياة بعد الموت، كما لا سلطان له على العقل الإنساني حتى يختار لهداية الجنس البشري أناسًا يضمن سلامة عقولهم من الآفات

والعاهات على الدوام؛ فكثيرًا ما تختار الحكومات لتعليم النَّشْءِ أساتذة ذوي ذكاء خارق، ولكنهم عندما يبلغون سن الهرم يأخذون في الهذيان والخَرَف، وليس هناك وسيلة نحدّد بها زمنَ إصابةِ عقولهم بالخرف حتى لا يؤخذ بخرافاتهم منذ ذلك الوقت؛ لذلك نجد الكثيرَ من تلاميذهم السذّج يصدّقون خرافاتِهم فيضلّون. فثبت أن التعليم الذي يهدي الناس حقًّا إنما ينـــزل من عند الله وحده، فهو خالقُهم وهو الأعلمُ بحاجاتهم، وهو الذي يُميتهم، وهو الأعلم بحاجاتهم بعد الموت، وهو الذي يملك التصرف على العقل الإنساني، وبالتالي يضمن سلامةَ عقول الذين يختارهم لوحيه. وإن في هذا لآيةً للمتفكرين، إذ لا يوجد بين الأنبياء نبي واحد بَلَغَ أرذلَ العمر حتى يقال عنه أن حالته العقلية ضعُفت في وقت من الأوقات، فلم يعد لكلامه اعتبار. هل هناك أية حالة كهذه تعرفها الدنيا من بين مئات الأنبياء الذين تعرفهم؟ كلا، لن تستطيع الدنيا تقديم مثال واحد على ذلك. أفليس هذا برهانًا ساطعًا على أن الذي يبعثهم هو مالِك العقل الإنساني والمتصرف فيه، فإذا اختار عبدًا من عباده لتعليم الناس تولّى بنفسه حماية عقل هذا العبد من كل مرض وعاهة.

أما إذا فسّرنا الآية من منظور الحياة القومية فالمراد أن الأمم أيضًا تصاب بالهرم والكبر وتنسى المعارف، فيتطلب الأمر أن يأتي الله بجيل جديد يتولّى بنفسه تعليمَهم بإنزال الوحي إليهم من جديد.

ثم أشار بقوله تعالى ﴿إن الله عليم قدير﴾ إلى أن الذي علمُه دائم لا ينفد، والذي هو قادر فعّال لما يريد، فهو وحده الذي يحق له أن يُنـــزل الوحي.

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾

شرح الكلمات:

على ما ملكتْ أيمانُهم: هو مَلَكَةُ يميني أي أملِكُه وأقدِر عليه (الأقرب).

نعمة: راجع شرح الآية رقم ٥٤.

يجحَدون: جحَده حَقَّه وبِحَقِّه: أنكره مع عِلمه به. جحَده: كفَر به؛ كذّبه (الأقرب).

التفسير: لقد ساق الله ﷻ هنا دليلاً آخر على ضرورة الوحي، وهو أن الوحي لا يصحح العقائد الفاسدة فحسب، بل يعمل أيضًا على إصلاح توازُن الحكومات الدنيوية. ففي كل زمن يخص الله ﷻ بعضَ الأفراد والأمم بنعمه وفضله، فيسبِقون غيرهم؛ وهذا قانون إلهي عام. ولو أن هؤلاء المتفوقين يتمسكون بالعدل والإنصاف ولا يهضمون حقوق الآخرين فلا بأس بسبقهم، ولكن ما يحدث دائمًا هو أن الذين يملكون زمام الأمور يرفضون كليةً أن يتقاسموا تلك السلطة أو النعمة مع عبيدهم أو الذين هم كعبيد لهم؛ وليس هناك من سبيل لإخراجِ المظلومين من تحت وطأة الظالمين ولِمنحهم الشرفَ والمنصب على أساس الجدارة والكفاءة والمساواة.. إلا أن يبعث الله ﷻ مرة أخرى نبيًّا من عنده يسترد للمظلومين حقوقهم.

إن الذين يستولون على مقادير البلاد إنما حجتهم أن زمام الأمر يجب أن يبقى في أيدي الأكفاء، وبهذه الحجة يحصرون الكفاءة في أناس معينين وعائلات خاصة

يريدونها، فيصبح الحكم حِكْرًا على بعض العائلات والقبائل، وتتوطد المَلكية، دون أن يؤخذ رأي العامة في الاعتبار أو أن يكون لهم دخل في الحكم.

وهناك فئة أخرى أيضًا تقوم بسلب حقوق الناس، وهم المحترفون الدينيون من براهمة ومشايخ وقسيسين ورهبان وكهان الذين يتصرفون وكأن الدين حِكْرٌ عليهم ومِلْكٌ لهم، فيجعلون العامة في معزل عن الدين، فلا هم يُخبرونهم بحقائقه كما لا يتيحون لهم الفرصة لدراسته عن كثب، وإنما يُقنعونهم بأن ليس لهم إلا أن يقبلوا كل ما يقال لهم عن المسائل الدينية، من دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء قراءة كتبهم الدينية والتدبر فيها حتى يفهموها وينتفعوا بها.

فكلما ابتعدت الأمة عن زمن نبي أخذت بعض الأُسر السلطةَ والحقوق في أيديها، ثم توارثتها فيما بينها، حتى لا يُعتبر العامة أهلاً للإدلاء برأيهم في أمور الدين ولا الدنيا. وتُرجع هذه الأسر المحتكِرة للسلطة هذا التمييزَ إلى كفاءة تكون موهومة في الواقع، حتى إن ابنًا غبيًّا للملِك يُعَدُّ أذكَى شخص في العالم، وهذا الغبي يبلغ من الزهو والغرور بحيث إنه حينما يريد إصدار أمر من الأوامر يستخدم كلمات سخيفة جدًّا، فيقول مثلاً: إن السمو الملكي يقترح لمصلحة الرعايا اقتراحًا رائعًا كذا، وها إننا نعلن عنه بهذا الإشعار؛ أو يقول: إنه من حسن حظ أهل البلد أن جلالة الملك يوافقني في رأي كذا. وكلما كثُر غباؤه كثُر زهوه واستكباره.

والأمر نفسه ينطبق على العالَم الديني. فإن الكثير يتلقبون بالمشايخ لأنهم أولاد علماء، في حين أنهم محرومون أصلاً من قوة التفكر والتدبر، ومع ذلك يطالبون الدنيا أن تقبل منهم سخفَهم من دون أدنى اعتراض؛ ومن فَضَّلَ كلامَ الله ﷻ على خرافاتهم وترّهاتهم التي لا برهان عليها أفتَوا عليه بالكفر والارتداد.

وفي مثل هذا الوقت العصيب لا ملجأَ للناس ولا علاج لمشاكلهم إلا بعثة نبي من عند الله ﷻ. وعندما يظهر النبي يُحرَم من معرفته وتصديقه هؤلاء الأغبياء الذين يدّعون العلمَ؛ أما الذين هم علماء حقًّا، والذين تراهم الدنيا بالعموم

جهالاً، فيؤمنون به بما أوتوا من نور البصيرة ونقاء الفطرة. وعندها تنشب الحرب بين الملائكة والشياطين، فأما الذين استُضعفوا واعتُبروا جاهلين غيرَ أكفاء فيُفشلون مكائدَ المستبدّين المستعبِدين للناس بحجة الكفاءة والجدارة، ويمزِّقون حججَهم كما تمزق النسور لحمَ الجيفة ضربًا على الصخرة. وهكذا ينكشف على الدنيا زيف هؤلاء الأغبياء الذين ادعوا أنهم أكفأ الناس وأجدرهم بالحُكم، وتتاح للمقهورين منذ أجيال فرصةُ الرقي مرة أخرى، وتتنفس الإنسانية في حرية تامة من جديد.

هذا هو المعنى الذي تبيّنه هذه الآية، حيث تخبرنا أن الذين يحتكرون نعمَ الله في أيديهم لا يُشركون فيها الذين استعبدوهم كيلا ينتفع بها السيد والمسود على حد سواء. متى منح هؤلاء المستبدّون لأهل الدنيا حرية الرأي وحرية العمل؟ فكيف يتسنى للإنسانية – والحال هذه– أن تتقدم وتزدهر، اللهم إلا أن يبعث الله ﷻ أنبياءه من حين لآخر ليعيدوا للإنسانية اعتبارها وحريتها.

إذن، فهذه الآية تؤكد ضرورةَ النبوة، وتسوق بهذا الصدد برهانًا عمليًّا يبلغ من القوة والوضوح بحيث لن يسع أهلَ البصيرة أمامه إلا الاعتراف بأنه لولا النبوة لما استطاع الناس حماية حقوقهم، ولولا نزول هذه النعمة مرة بعد أخرى لما قدر الإنسان على المضي قُدُمًا.

وأما قوله تعالى ﴿أفبنعمة الله يجحَدون﴾ فيمثّل لومًا لعامة الناس بأنكم تتنكرون لمن جاء لنجدتكم وتكفرون به، وتُظاهرون الظالمين الذين سلبوكم حقوقكم بالظلم والعدوان.

هذا، والآية عرضٌ رائع للنظرية الإسلامية عن المِلْكية. فقوله ﷻ ﴿رزقهم﴾ يمثل إعلانًا ربانيًّا أن ما في أيدي الأثرياء هو ملك لهم بدون شك، ولكنه ملكٌ للفقراء أيضًا كما يتضح من قوله تعالى ﴿فما الذين فُضِّلوا برادّي رزقِهم﴾، لأنه إنما يُرَدُّ من الأشياء ما يكون للغير، أما ما يملكه أحد بالتمام والكمال فلا يُرَدّ. ويبدو لأول وهلة أن هناك تعارضًا في الآية، ولكن الأمر ليس كذلك. إن من

مزايا تعليم الإسلام أنه يعلن أن كل شيء ملك لاثنين: أحدهما مَنْ كَسَبَ هذا الشيء، وثانيهما البشرية جمعاء. إن الإسلام يوزّع الملك بين صاحبه وبين الناس أجمعين، لأن الواقع أن لكل فرد من البشر حقَّ الملكية على كل شيء موجود في الدنيا لكون الناس سواسية، ولذلك فقد سعى الإسلام أن لا يملك أحد شيئًا ما بحيث يحول دون رقي الآخرين، بل قد أفسح الإسلام المجال للآخرين أيضًا لينتفعوا منه؛ وما أدلَّ على ذلك من أحكام الإسلام في أداء الزكاة وتوزيع الإرث، ونهيه عن جمع الذهب والفضة، وعن التعامل الربوي وغيرها من الأحكام الكثيرة مما لا مجال هنا للخوض في تفصيله. والخلاصة أن الإسلام لا يقول بملكية شخصية مطلقة، ولا بملكية قومية بلا حدود، بل يقيّد الطرفين بشروط، لكي يزدهر كل منهما في دائرته المحددة.

و﴿ما ملكتْ أيمانُهم﴾ يعني العبيد عمومًا، وقد استخدمه القرآن بهذا المعنى في معظم الأحيان، ولكن مفهومه، لغةً، أشملُ من ذلك، أي كلُّ ما هو تحت تصرُّف الإنسان من الخَدَم والموظفين والأجراء والعمال وغيرهم.

هذه الآية رد على الذين لا يرون أية حاجة للوحي السماوي ويقولون: بإمكاننا أن نختار بأنفسنا منهجًا مناسبًا لحياتنا. يقول الله تعالى: إن سن الشرائع يجب أن يكون من اختصاص الله فقط، لأن سن القوانين السليمة من الخطأ والسقم إنما يستطيعه من لا مصلحة له في تقسيم الحقوق، إذ لا بد أن تدفع المصلحة الشخصية أو القومية صاحبَها إلى الخطأ. فمثلاً لو سنّ الرجال قانونًا ما لم يرعَوا فيه حقوقَ النساء كما ينبغي، ولو سنّ الأثرياء قانونًا ما لركّزوا فيه على حماية حقوق كبراء القوم مهملين حقوق الفقراء، وهلمّ جرًّا. فلذا يقول الله تعالى: إننا لم نفوّض سنَّ الشرائع إلى البشر منعًا لاحتكار النعم في أيدٍ معدودة، وإنما باشرنا هذا الأمر بأنفسنا حتى نسترد حقوقَ العامة الذين هم كالعبيد ولا يملكون صوتًا قويًّا يجبر الآخرين على ردّ حقوقهم إليهم.